الربيع العربي
للنشر والتوزيع
ت الياسمين
للنشر والتوزيع

رواية

برج العذراء

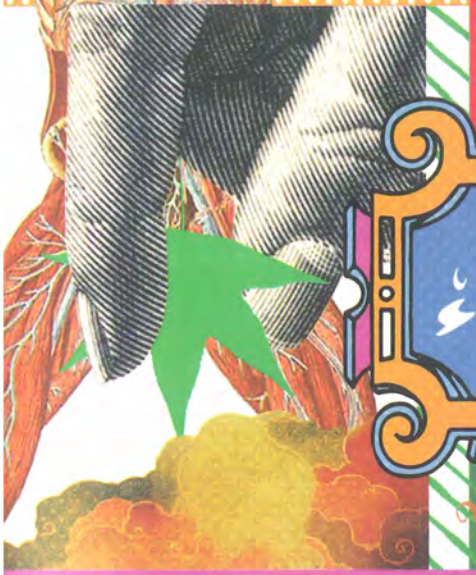

إبراهيم عبد المجيد

المشروع

بُرْجُ العَذْرَاء

برج العذراء

رواية

إبراهيم عبد المجيد

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

الإخراج الداخلي: آب إمام - آب ستوديوز

طبعة أولى دار الربيع العربي وبيت الياسمين يناير 2015

طبعة دار الآداب 2003

عبد المجيد،إبراهيم

برج العذراء، رواية،

ط1 دار الربيع العربي وبيت الياسمين، القاهرة، مصر.

ردمك: 978-977-5221-26-1

رقم الإيداع(مصر): 2014/20996

الربيع العربي

للطباعة والنشر والدعاية والإعلان

المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم

002-01141411118

002-01140848568

www.rabe3arabe.com

rabe3arabe@gmail.com

rabe3arabe

بيت الياسمين

الإشراف العام: زياد إبراهيم

53 ش خيرت - ميدان لاظوغلي - القاهرة - مصر

002- 27949885

002- 01110094625

Baitelyasmin@yahoo.com

كافة الحقوق محفوظة للناشر ©

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقةٍ، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابيّ مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببضع فقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

إبراهيم عبد المجيد

برج العذراء

رواية

أراد الدخول بالسيارة في الطريق الزراعي، فوجد نفسه في الطريق الصحراوي..

الوقت يقترب من المساء. الجو حار خانق. درجة الرطوبة لا تُطاق. لقد أمضى شهرًا في المستشفى في جوٍّ باردٍ، فمن أين تأتي هذه الحرارة والوقت شتاءً! هل كان شهرًا أم فصلًا كاملًا من فصول العام؟ ثم لماذا هذا الهياج الجنسيُّ غير المحتمَل الذي ينتابه فجأة، وهو الذي أمضى الشهر يبكي في صمتٍ موتَ زوجته وابنته في الحادث! قال له الأطباء والممرضات: «لقد عُدتَ إلى الحياة بمعجزة طبية» وكان يود لو عادت زوجته وابنته بمعجزة إلهية.

إنه يقود السيارة بجنون الآن، ليس سعيدًا أبدًا، لكنه ذاهب إلى هدف بعيد لا يراه، يريد أن يدوس عليه ويحطِّمه. إذًا هل يلتقط هذا الشرطيّ الذي يقف بعيدًا وحيدًا ظاهرًا تحت الضوء؟

كانت قدمه قد ارتفعت عن دوّاسة البنزين، وراحت سرعة السيارة تتباطأ. إنه يتوقف الآن للشرطي، ويفتح له الباب المقابل. لقد بدا له حقًّا شخصًا مسكينًا وسط كل هذا الفراغ من الرمال والضوء. كان يعرف أنه لن يجد امرأة أبدًا على هذا الطريق، لا، لم يكن قد فكّر في ذلك، وأن الهياج الجنسيَّ سوف تخفُت حِدَّته ما إن يتحدث مع أحد، حتى لو كان شرطيًّا، لكن ما إن جلس الشرطي على المقعد المجاور له حتى بدا له شكله مزريًا، ملابسه ليست نظيفة، ووجهه متجهِّم. وقبل أن تستيقظ كراهيته للشرطة، انفجر الشرطي في البكاء. لقد بدا له أصغر حجمًا مما كان يراه في الطريق، وبدا له يعاني من أنيميا مُزمنة.

ارتبك من هذا البكاء الذي بدأ في الحال يُحرِّك مشاعره. كانت سرعته في قيادة السيارة، هروبًا أيضًا من بكاء يكاد يغرقه... هكذا يكتشف الآن.. هل يمكن أن تختلط الرغبة في الجنس بالرغبة في البكاء؟

- اعذرني يا أستاذ، هذه الأغنية تؤثر فيَّ جدًّا.

كان راديو السيارة يبث أغنية لفايزة أحمد. لم يكن قد انتبه إلى أنه أشعل الراديو، ولا لجمال الأغنية التي كان يحبها جدًّا زمان...

صمتا للحظاتٍ مسح فيها الشرطيُّ عينيه براحتيه. قدَّم له منديلًا ورقيًّا من صندوق المناديل الموضوع أمامه أعلى تابلوه السيارة.

يا لـولي يا لـولي فصوصك قالـوا لي

تـشوفـم جمالي ولا تـوصـلـوا لي

- كانـت زوجـتي تغنيهـا لابنـتي كلمـا بكـت، كانـت دموعهـا الصغـيرة مثـل حبَّـات اللـولي يـا أسـتاذ...

لـم يعـرف بمـاذا يجيبـه. اسـتمر يقـود السـيارة عـلى مهـل. فكـر أن يطفـئ الراديـو، لكنـه اكتفـى بخفـض صوتـه.

بعد لحظات قال:

- أنـت رجـل بوليـس قـوي. رجـال البوليـس لا يبكـون، ثـم إن ابنتـك سـتكبر وتكـف عـن البـكاء.

عاد الشرطي يبكي بلا صوت، وقال:

- أقول لك كانت زوجتي تغنيها لابنتي.

- آه فهمت. هل تركتك زوجتك؟

- لا، ابنتي... ماتت الأسبوع الماضي.

أغمـض عينيـه لحظـات.. الشرطي يفتـح لـه بـاب الحـزن عـلى ابنتـه وزوجتـه. هـل يطلـب منـه أن يسـكت! لـو بـكى سـتقع كارثـة وهـو يقـود السـيارة.

- لـم تكـن ابنـتي مريضـة. لـم يحـدث لهـا أي حـادث. كنـت أنـا وأمهـا نتفـرج عـلى التليفزيـون وجـاءت هي مـن غرفتهـا تقول أنهـا تخـاف أن تنـام. لمـاذا؟ قالـت «خايفـة يـا مامـا لمـا أنـام أمـوت» أخذتهـا أمهـا في حضنهـا وأعادتهـا إلى الحجـرة بعـد أن شـجعتها عـلى النـوم، أنامتهـا عـلى سريرهـا وعـادت، وأنـا كنـت

مندهشًا جدًّا من كلام البنت.

بعد السهرة ذهبت إلى حجرتها لأقبّلها وهي نائمة. لقد تعودت أن أفعل ذلك. كانت تشعر بي

وتستيقظ وتتعلق في رقبتي يا أستاذ. وجدتها باردةً جدًّا، لم تستيقظ ولم تتعلق في رقبتي...

- أرجوك...

هتف بصوت مخنوق، وأشتعل وجهه وهو يقاوم البكاء...

- لا تلُمني يا أستاذ. لا يعرف ألم الآباء إلا الآباء.. هل ضايقتك؟

كانت هناك كافيتريا تظهر بعيدًا على الطريق. قرر التوقف عندها، لكنه تجاوزها، وراح يقود السيارة صامتًا، لقد أطفأ الراديو أيضًا، وطال الصمت، ولاحظ أنه يُسرع بالسيارة من جديد. وفاجأه الشرطي بسؤال:

- هل سبق لك أن عملت بالشرطة؟

- أنا؟ لا.

- الحمد لله. أنا أيضًا سوف أترك الشرطة. من اليوم لن أعود إلى العمل. ليس لأن ابنتي ماتت، لا، هذه أعمار. في النهاية دائمًا نقول ذلك. لكن الضابط الذي يرأسني ضربني أمس أمام زملائي.

كانت هناك كافيتريا أخرى قد ظهرت له فاتجه إليها. قال مجاهدًا أن يبتسم:

- ما رأيك أن تشرب كوبًا من الشاي معي وتنسى كل ما قلته؟

- كتر خيرك يا أستاذ.

في الكافيتريا شرب الشرطي كوب الشاي بسرعة وتركه ليذهب إلى دورة المياه. مضى وقت طويل ولم يعُد. لم يجد مفرًّا من مواصلة الطريق وحده. أشعل الراديو من جديد، وتوقف بالمؤشر على محطة الأغنيات. إنه يستمتع بالأغنيات الشجيَّة الآن. هذه علامات صحة نفسيَّة حقيقيَّة. الحمد لله. ضرب المقود بيده. انطلق يا رجل. ها هو الهواء يهب عليك من الصحراء مُحمَّلًا بالبهجة والانتعاش. ها هو الطريق مفتوح على السماء «يا أولاد الكلب يا جزم ها أنذا راشد رشاد عاقلًا قويًّا، يا أولاد القحبة تريدون أن تطفشونا من بلادنا»!

و لم يكن يعرف لمن يتوجه بهذا الكلام. وحتى بعد أن نزل الليل على الصحراء، صار يسابق كل السيارات، رغم أن سيارته لم تعُد في قوتها قبل الحادث، إلا أنه لا يذكر حتى مَن قام بإصلاح السيارة بعد الحادث، وعلى آخر الطريق، في اللحظة التي كاد فيها أن يدخل طريق المدينة الذي سيُفضي به إلى وسطها، لاحظ أن السرعة لا تزال تزيد على المائة كيلو متر في الساعة، رفع قدمه عن دوَّاسة البنزين، لكن الوقت لم يكن كافيًا للإبطاء. اندفع شاب خارجًا من شارع جانبيٍّ يعبر الطريق فجأة، لتصطدم به السيارة صدمة قوية أحدثت صوتًا رجَّ الهواء، وطار الشخص لأكثر

مـن عـشرة أمتـار أمامـه.

.....

- خذ الطريق الدائري بسرعة...

صـاح شـخص مـن الذيـن تجمعـوا حولـه وحـول السـيارة وحـول الضحيـة الـذي كان لا يـزال فيـه بعـض حيـاة...

- الطريـق الدائـري يصـل بـك إلى المستشـفى المركـزي بسرعة. انظـر إلى الطريـق النـازل إلى المدينـة، مزدحـم جـدًّا لـن تصـل قبـل أن يمـوت الشـاب...

كان هـو يقـف متخـاذلًا لا يقـدر عـلى فعـل شيء، لا يقـدر حـتى عـلى الـكلام. وحمـل النـاس الشـاب الضحيـة إلى المقعـد الخلفـي في سـيارته. دخـل الشـخص الـذي اقـترح الطريـق الدائـري وجلـس عـلى المقعـد الأمامي، وراح هـو يقـود السيارة ذاهـلًا غـير مُصـدِّق مـا جـرى.

كان المُصـاب لا يـزال يتنفـس، لكـن وجهـه بـدأ يـزداد إصفرارًا ويـزرق لدرجـة مُرعبـة، وكان هـو يـراه في المـرآة المُعلَّقـة أمامَه.

- نزيـف داخـلي مـع تحطُّـم عـدد كبـير مـن أضلاعـه، وخلـع في فخـذه الأيـسر، وكـسر في الركبتـين، وسـحجات في الوجـه والجسـد...

قال الشخص الذي صعد إلى السيارة معه.

سأله بصوت خافت:

- كيف عرفت؟

- عندي خبرة، وحادث مثل هذا لن يؤدي إلى أقل من ذلك.

لم يرد، راح يستمع إلى إرشادات الرجل حتى وصلت السيارة إلى المستشفى. دخلا بالمُصاب إلى قسم الحوادث بعد أن حمله تومرجيان على عربة متحرِّكة.

- الدكتور قادم حالًا..

قال التومرجيان وهما يمدان كفَّيهما إليه. وضع في كل كفٍّ خمسة جنيهات. لم يكن معه عُملة أقل من ذلك. اندهش الرجل الذي يصحبه وقال:

- هكذا ستنفق كل ما معك. جنيه لكل تومرجي يكفي..

أخرج من جيبه ورقة فئة المائة جنيه وقدمها إليه..

- حاول من فضلك أن تجد فكّة، جنيهات إذا أمكن...

كانا يقفان وسط العنبر الكبير، المصابون حولهما مُسَجّون فوق العربات ذات العجلات، مُغَطّون بملاءات بيضاء قذرة. هذه مشرحة وليس قسم استقبال للحوادث. قال في نفسه وهو يرى الصمت مطبقًا على المكان.

لقد صار وحده الآن، إذ اختفى الرجل الذي أخذ المائة جنيه. نصف ساعة مضت ولا أحد، لكن الممرضة ظهرت فشبَّ على قدميه وتنهَّد. لاحظ وهي تقترب أنها ملفوفة القوام، وأن زيّها الأبيض نظيف، وأن فخذيها متماسكان تحت البلطلون بشكل مُثير. قالت وهي تضحك:

- معقول واحد حيّ في قسم الحوادث؟!

قال في إشفاق وهو يُشير إلى الضحية.

- أنا حضرت مع المُصاب، إنه ينزف بشكل خطير. أرجوكِ تستدعي الطبيب.

ردت ساخرةً:

- وكيف عرفت أنه ينزف؟ دكتور حضرتك؟!

وتركته وانصرفت.

- يا سستر. يا ست...

التفتت إليه وقالت بحِدَّة:

- وبعدين معاك؟ امسك أعصابك. لو كل مصاب الناس خافت عليه هكذا ماذا سيفعل عزرائيل! يقعد دون عمل!

قبل أن تصل دهشته إلى مداها لاحظ أن يدًا شديدة البياض والزُّرقة تظهر عروقها بشكل بارز تخرج من تحت ملاءة وتعبث في مؤخرتها فالتفتت إلى صاحب اليد مندهشةً، وقالت:

- الله! انت رجعت للدنيا؟

لكن صاحب اليد شخر شخرة قصيرة وتهدَّلت ذراعه بعدها، فقالت ساخرةً:

- يعني كنت ح تعيش بقلة الأدب! أديك قليت أدبك وبرضه مُت. جاتكم القرف.

واختفت بسرعة، بينما ظل هو واقفًا في حالة من البلاهة تكفي للدنيا كلها. انتبه إلى جاويش يقف أمامه يسأله:

- هل أنت الذي قتلت هذا الشاب؟

- أنا صدمته. هل مات؟

ابتسم الجاويش وقال:

- ألا ترى؟

نظر إلى وجه الشاب فوجد عينيه شاخصتين إلى الأبدية، وأن فمه مفتوح على الصمت..

- لا بُد من تحويلك إلى قسم الشرطة.

.....

كان يقود السيارة وهو يفكر كيف صار قاتلًا، وكيف أنه ذاهب إلى قسم الشرطة يواجه تهمة حقيقية بالقتل! هل سبق له وهرب من هذه التهمة؟ هل حقًّا قتل من قبل؟ هي السيارة المشئومة التي انقلبت به هو وزوجته وابنته فماتتا. ها هو شخص ثالث يموت. ما كان عليه أبدًا أن يصلح السيارة. لو أنه تركها في مدينته الساحلية ووصل إلى العاصمة بالقطار! لن يركب هذه السيارة بعد اليوم. المهم الآن أن يخرج من هذه الحفرة التي تبدو بلا قرار...

- أنا لا أعرف إلى أيِّ نقطة بوليس أذهبُ!

- أنا سأرشدك...

لدهشته كانت كل المصابيح في الشوارع مُضاءَة، والمدينة

تبدو في حالة فرح. فكَّر لو أن سالم سليمان هو الذي يكتب عن الحادثة الآن لقال «ظهرت الشوارع مُعتمةً سوداء في عينيه مقبضة»، لكنه لن يكتب حكايته الآن. إنه مُتعَب.

- هل قسم الشرطة بعيد؟

- لا، لكني جائع. ألست جائعًا؟

اندهش من رغبة الجاويش في الأكل. وعاد الجاويش يقول:

- الدنيا برد وعليك أن تأكل ما استطعت لأنك ستمضي الليلة في التخشيبة حتى تُعرَض على النيابة في الصباح ولن تجد طول الليلة شيئًا تأكله.

كيف حقًّا صار الجو باردًا؟ لقد كان دائمًا باردًا. الحرارة التي شعر بها وهو يغادر مدينته الساحلية كانت شيئًا طارئًا، لم تكن حقيقية. واستمر الجاويش يتكلم..

- ستُفرج عنك النيابة في الصباح بالضمان الشخصي، أو بكفالة مالية بسيطة، ثم يتحول الأمر إلى قضية، وحتى يحين موعد نظر القضية في المحكمة تكون وصلت إلى تسوية مع أهل القتيل، تدفع لهم تعويضًا مناسبًا مثلًا.

- لم يكن في حاجة إلى أن يسمع شيئًا الآن، النوم هو ما يريد ولا شيء آخر. لكن الجاويش هتف وهو يحرك أنفه.

- الله! رائحة كباب. انتظر أرجوك...

كان هناك حاتي قريب توقَّف أمامه، وسرعان ما دخلا إلى المحل..

مـا إن أقبـل النـادل بالكبـاب حـتى راح الجاويـش يـأكل بسرعـة، بينمـا هـو اكتفـى بالفُرجـة عليـه. النـوم هـو مـا يريـده، هكـذا فكَّـر مـرةً ثانيـةً.

انتهـى الجاويـش مـن تنـاول الطعـام ثـم وقـف يصلِّي عـلى الأرض في الركـن القريـب. أطـال الصـلاة أكـثر ممـا يتوقَّـع.

انتهى، وقال:

- لـم أصـلِّ المغـرب ولا العشـاء، صلَّيتُهمـا معًـا. الشـغل كتـير يـا أسـتاذ.

تقريبًـا لـم يكـن يسـمع. كاد ينـام وهمـا خارجَـين. لقـد أعطـى النـادل ورقـة فئـة الخمسـين جنيهًـا ولـم يفكِّـر في أن يأخـذ البـاقي، وحـين رأى الجاويـش هـو الـذي يأخـذ البـاقي ويضعـه في جيبـه لـم يعـترض.

وقال الجاويش:

- لـو تركـت بقشيشًـا في كل مـكان لـن تجـد ثمنًـا لطعامـك أو شرابـك، ثـم إنـك سـتدفع كثـيرًا في قسـم البوليـس... انتبـه.

تذكـر الرجـل الـذي ذهـب يفـك المائـة جنيـه، وكيـف قـال لـه ذلـك أيضًـا، وسـأله الجاويش:

- ألم يكن معك شاهد على الحادث؟

أجاب في يأس:

- كان معي، لكنه هرب!

- كان سيفيدك جدًّا. واضح أنه ابن جزمة جبان.

- يبدو ذلك..

قال بصوت خافت ومُتعَب. في قسم الشرطة سيجد أرضًا لينام فوقها، هذا هو المهم الآن.

أمام القسم سأله الجاويش من جديد:

- ألا تعرف أحدًا هنا؟

- أعرف.

- إذًا اتصل به بسرعة ليأتي ويأخذ من السيارة كل ما يمكن حلُّه، الراديو والكاسيت والبطارية، والعجلة الاحتياطية والطفاية والفوانيس وغيرها. أجل، قُل له أن يحضر ميكانيكي معه أو كهربائي سيارات. السيارة ستُصادَر حتى يتم فحصها في المرور، وخلال ذلك ستتم سرقة كل شيء/ صدقني..

لم يهتم؛ لقد كره السيارة!

.....

قسم البوليس مبنى عريض قصير يتصدَّر الشارع. الشارع واسع لكنه ينتهي بالقسم يسدُّه تمامًا. على جانبي واجهة القسم شجرتان عاليتان يابستان، خلفهما نوافذ مُغلقة. على باب القسم يقف مُخبر له شارب كثّ طويل يسأل كل داخل عن وِجهته ويتحقَّق من شخصيته. ما إن رأى المخبر الجاويش حتى ابتسم، فقال الجاويش:

- وسِّع يا حمار.

ضحك المخبر وتراجع خطوةً، ثم مدَّ يده طالبًا

البقشيش. قال الجاويش:

- لا تُعطه أكثر من جنيه.

أعطاه ورقة فئة الخمسة جنيهات، تذكر الرجل الذي لم يعُد بالمائة جنيه مرةً اخرى. دخل مع الجاويش من البوابة الواسعة. سمع الجاويش يقول للمخبر:

- ليست لروح أمك كلها!

كانت دهشته كبيرة للغة التي يتحدث بها الجاويش لكنه أحس بشيء من القوة يدب في رُوحه، فأسرع وراء الجاويش الذي كان قد أسرع يسبقه.

الطُّرقة التي يُسرعان بها طويلة ضيقة، وسخة، نورها أصفر ضعيف، يهرول بها عساكر ومخبرون وناس عاديون ومجرمون مقيدون بالحديد، يسوقهم عساكر يُمسك كلٌّ منهم بخيزرانة سميكة أو جنزيرًا حديديًا كان في الأصل مُخصَّصًا للدرَّاجات. وصلا إلى باب غرفة المأمور الذي كان يقف أمامه جاويش آخر أصغر حجمًا.

تحدث الجاويشان لحظات، ثم قال الذي معه، وهو يُشير إلى زميله:

- سوف يُدخلك إلى المأمور.

ومدَّ له يده فأخرج من جيبه ورقة مالية فئة العشرة جنيهات أعطاها له. نظر اليها الجاويش وابتسم ثم هزَّ رأسه ومضى. كان الجاويش الآخر يسدّ الباب ويبتسم، فدس في يده خمسة جنيهات فاتسعت ابتسامة الجاويش

وأوسع له طريقًا للدخول.

ما إن دخل حتى جلس على أحد المقعدين الأماميين لمكتب المأمور الذي كان أحمر الوجه جدًّا، ورأى جوار الحائط كنبة طويلة من الجلد الجديد اللامع، ورأى أيضًا الجاويش الذي كان بالباب يتقدَّم بعدَّة أوراق للمأمور، ويؤدي التحية ويتكلم...

- محضر المتهم يا باشا.

نظر المأمور إلى المحضر بلا اكتراث، ودقَّ التليفون أمامه فرفع السمَّاعة ولم يرد للحظاتٍ، كان واضحًا فيها أنه يستمع إلى الطرف الآخر ويبتسم، ثم قال:

- حاضر يا باشا، سنقوم باللازم.

أعاد السمَّاعة إلى مكانها وابتسم وقال.

- هل ضايقك أحد يا سالم بك؟

انفتحت عيناه على اتساعهما. إنه يناديه بسالم... يا إلهي! ولَمَّا بدا مرتبكًا نظر المأمور إلى أوراق المحضر مرةً أخرى بسرعة وذكاء، ثم قال:

- رغم أن المحضر الذي حُرِّر لك باسم راشد رشاد. إذًا سالم سليمان هو اسم الشهرة فقط. هذا طبيعي في مهنتكم. أليس كذلك؟

لم يرُد. إنه حقًّا يحمل صوت سالم سليمان الأنثويّ منذ عاد من البلدة الصحراوية القريبة. لقد كانت زوجته

مندهشة جدًّا من صوته الذي تغير فجأةً، وكان كل من يسمعه يندهش من هذا الصوت الأنثويّ، لكن لا أحد يعرف أنه صوت سالم سليمان، ولا يعرف أحد بالطبع كيف انتقل إليه هذا الصوت. وسمع المأمور يقول:

- أنت طبعًا وقّعت على المحضر باسمك الموجود في بطاقتك العائلية...

كاد يقول له «الشخصية» فهو رغم زواجه لم يغيِّر بطاقته، لكن كان مشغولًا بالتفكير في هذا المحضر كيف ومتى تم تحريره له، وهل وقّع عليه حقًّا؟ محضر تحقيق حادثة، أمر عادي لا يستحق التزوير أو إجبار أحد على التوقيع عليه، فحوادث الطرق ليست عملًا سياسيًّا، ولا يمكن إنكارها. إذًا لا بُد أن أحدًا حرَّر له هذا المحضر واستجوبه من قبل، ومن المؤكد أنه هو الذي وقّع عليه. ليس مهمًّا أن يعرف متى ولا كيف!

فالمأمور يقرأ اسمه الحقيقيّ راشد رشاد. لكن لماذا ناداه بسالم سليمان؟ هل كان يعرف صوت سالم؟ هل قابله من قبل؟ وإذا كان يعرف فهل نسي صورته، أم أنه هو راشد رشاد، صار الآن يحمل وجه سالم سليمان أيضًا؟

هكذا فكَّر فجأةً، فلقد كانت آخر مرة ينظر فيها في المرآة صباحَ اليوم. وقال المأمور بدمائةٍ:

- لا تقلق. سأوصي الضابط النوبتجي أن لا يُدخلك إلى التخشيبة، سيخصص لك مكانًا إلى جواره حتى الصباح. أنا للأسف مضطر للانصراف بعد قليل.

أراد أن يسأله مَن الذي كان يتحدث إليه بالتليفون وقت دخوله. وهل للذي تحدَّث علاقة بأزمته، هل يتابعه أحد ويعرف أنه الآن متورط في مأساة؟

لكن دخلت امرأة، ملفوفة في ملاءة سرير كاروهات، وهي ترتعش من الغيظ، وخلفها رجل في نشوة المنتصر يمسك بذراع شاب عارٍ ملفوفٍ أيضًا، نصفه الأسفل في ملاءة ملونة، وخلفهم مخبر ضخم. نظر المأمور إليهم لحظةً وضع بعدها رأسه بين كفيه لحظاتٍ، ثم رفعها وقال للمخبر في نبرة يائسة:

- خدهم على الحجز. المرأة مع الشراميط، وعشيقها مع الخولات، أما هذا العرص فاتركوه قليلًا معنا...

بهدوء وقف المأمور، وفي الوقت الذي خرج فيه الآخرون دار هو خارجًا من خلف مكتبه واتجه صامتًا إلى الزوج الذي بان عليه الذعر وتراجع إلى الحائط. صوَّب إليه المأمور نظرةً ناريةً، وقال بغيظ مكتوم:

- طبعًا أنت فرحان لأنك قبضت على زوجتك في حالة تلبُّس.

لم يرُد الزوج. فجأةً صفعه المأمور صفعةً مدويةً ارتمى الرجل على إثرها في الركن البعيد، واحمرَّ وجهُ المأمور أكثر، وهو يقول له:

- فالح يا روح أمك.

ثم نادى الجاويش الذي يقف خارج الباب، فدخل

مُسرعًا، فصرخ فيه:

- خذ ابن القحبة هذا، واعمل له المحضر الذي يريده، والباقي أنت تعرفه.

ظهر على الفور ثلاثة مخبرين سحبوا الزوج من يديه وقفاه، وهو مذعور بينهم مثل أرنب حقيقيٍّ. نظر المأمور إليه، وقال:

- هذه ثالث مرة يا سالم بك، وفي كل مرة يأتي بزوجة جديدة. لما هو مش قادر على النسوان ليه يتجوز؟!

فجأةً اندفع أحد المخبرين داخلًا. أدَّى التحية بسرعة، وهتف:

- نعمل اللازم مع الزوج يا باشا؟

صرخ فيه المأمور:

- أمال انت بتشتغل إيه هنا؟ عمالين نعلف أمك ونديك بدلات ونازل رشوة من خلق الله وجاي تسألني يا ابن.....

كان انفعال السيد المأمور إلى غايته، حتى بدا سيُصاب بأزمة قلبية، لكنه سرعان ما انبسطت أساريره، وقال:

- شغلانة تقصّر العُمر يا سالم بك. لا تؤاخذني. أنا والله لست كما رأيتني الآن.. أنا بني آدم مثلك، لكني لم أعُد أستطيع التحمُّل.

في الحقيقة لم يكن يسمع، بل تقريبًا لم يكن يراه. ساد صمت طويل دخل خلاله الضابط النوبتجي الذي صافح

المأمور. كان ضابطًا صغيرًا برتبة صغيرة. خرج الاثنان معًا لحظات ظل هو فيها جالسًا لا يُدرك أنه جالس، ثم عاد الرائد مبتسمًا، وقال له:

- تعال معي.

خرجا. مشيا في الطرقة الطويلة من جديد. أسلمتهُما إلى طرقة جانبية أطول، نورها أضعف. لقد ميّز الآن أن في وسط القسم فناءً كبيرًا تدور حوله الطرقة. لكن الفناء كان خاليًا ومُظلمًا. لم يكن فيه ثمة شيء غير مقعد وحيد في منتصفه كان يبدو شاذًّا بحق وسط الظلام والفراغ.

كان الضابط الشاب يسبقه مُسرعًا، وخلفهما عدد من المخبرين والعساكر. اتضح له وهو يتلفَّت يمينًا ويسارًا أن القسم كبير حقًّا، ومكوَّن من عِدة أدوار، ولأنه كان يرى بين الحين والحين فتحات جانبية بها سلالم هابطة أدرك أن هناك أكثر من بدروم أيضًا. اقترب منه أحد المخبرين هامسًا..

-ألن تأكل؟

و لم يُمهله وقتًا ليُجيب، أردف:

- لازم تاكل... جوارنا محل كباب محترم.

أخرج من جيبه عشرين جنيهًا، فقال المخبر هامسًا من جديد:

- نصف كيلو كباب؟ أنت محتاج اتنين كيلو على الأقل.

وبسرعة أعاد إليه العشرين جنيهًا، فأخرج بدوره ورقة ظهر له أنها فئة المائة جنيه، وقبل أن يتراجع خطفها المُخبر بمهارة، وتوقَّف عن المشي معهم!

في نهاية الطرقة كانت هناك غرفة صغيرة دخلها الضابط الشاب، وفوجئ هو بأحد المخبرين يُمسكه من ذراعه ويأمره بالتوقف قليلًا.

تناهت إليه بعد لحظة أصوات ضرب وشتائم وجري، وراح المخبر والذين معه يكتمون ضحكاتهم، ثم خرج رجل عاري الصدر جاريًا وخلفه خرج شاب مذعور يرتدى جلبابًا قذرًا

و يجري أيضًا. بعدها خرج الضابط ثائرًا في وجه العساكر والمخبرين ويصرخ:

- في مكتبي يا أولاد الوسخة! من الذي سمح لهما بالدخول إلى مكتبي؟ مَن ابن القحبة الذي أخرجهما من التخشيبة؟!

لم يفهم بالضبط ماذا كان يحدث بحجرة الضابط، لكنه جلس أمام الضابط الشاب الذي بدا مهمومًا جدًّا صامتًا مُغمضَ العينين ينفثُ غيظه بهدوء. لم يدخل معهما أحد من المخبرين أو العساكر، لاحظ ذلك واندهش له.

ونظر إليه الضابط بهدوء وسأله:

- ما هو عمل حضرتك بالضبط؟

- كاتب.

- ماذا تقصد بكاتب؟

- أديب.

- آه. فهمت، في أي صحيفة حضرتك؟

- في كل الصحف.

تأمله الضابط بدقة، بدا مندهشًا جدًّا من إجاباته التي لم يستوعبها، لذلك أردف؛ علَّه يوضح الأمر:

- هناك كتَّاب يعملون بالصحف، وهناك كتَّاب أحرار، هذا ما أقصده.

ابتسم الضابط، وقال:

- إذًا أنت من الأحرار يا علي!

ابتسم هو بدوره، فالضابط يتبسَّط معه، ويُردد العبارة الشهيرة التي قالها أحد الضباط الأحرار لعلي بطل رواية «رد قلبي» وهو يضمه إلى تنظيمهم السريّ الذي يخطط لثورة يوليو، وهي العبارة التي شاعت في كل البلاد العربية بعد أن تم تحويل الرواية لفيلم كبير وشهير.. يستطيع هو بدوره أن يتبسَّط مع الضابط الذي بدا له لطيفًا بحق. ابتسم وقال:

- مع ملاحظة أنني لا علي ولا من الضباط الأحرار.

- طبعًا طبعًا. قلت لي ما اسم حضرتك؟

تردد لحظةً... راشد رشاد أم سالم سليمان؟ اختار الأخير الذي ناداه به المأمور.

- سالم سليمان.

- رغم أن اسمك المدوَّن أمامي راشد رشاد. حضرتك تكذب! أنت تظنني لا أقرأ؟

قال الضابط الجملة الأخيرة بصوت أعلى، بدا غاضبًا إلى حدٍّ ما، وفتح أحد أدراج مكتبه وأخرج صفحةً من جرنال قديم وضعها أمام عينيه، وقال بانفعال:

- هذه هي صورة سالم سليمان، وأنا منذ صباي من كبار المعجبين به. يعني حضرتك كذَّاب!

نزل عليهما صمتٌ ظلَّ فيه الضابط الشاب ينظر إليه بتحدٍّ مُخيفٍ. لم يعرف ماذا يمكن أن يفعل أو يقول. لقداستخدم الاسم الذي ناداه به المأمور، متصورًا أنه ما دام المأمور قد فعل ذلك فسيفعله الجميع. وكان مندهشًا كيف أنه لا يحمل من سالم إلا صوته، وتعرف عليه المأمور من صورته، أو من المكالمة التليفونية المجهولة، وهو يتعجَّب الآن من الضابط الذي لا يرى فيه أي شبه بسالم سليمان، ولا يدرك أنه يحمل صوته، وخطر على باله كيف اختفى «فرح» منذ خرج من المستشفى. ذلك الكائن الصغير الذي لا يفارقه منذ اختفى سالم، والذي لا يراه إلا هو. ذلك الشيطان أو الملاك، فهو لا يعرف، ولم يعرف قط.

كان الضابط لا يزال يُمعن النظر إليه، ثم صرخ:

- انت يا حمار ياللي على الباب.

انتفض من مكانه في الوقت الذي قفز فيه إلى وسط

الحجـرة أحـد المخبريـن، أدَّى التحيـة عـلى عَجَـلٍ.

- خذ البيه الكذَّاب إلى التخشيبة.

.....

- شم في جزمتك يا أخ..

كان الرجـل الـذي يبـدو عتيـدًا في الإجـرام قـد خلـع جزمتـه بالفعـل ووضعهـا أمـام أنفـه. لـم يجـد هـو أيضًـا غـير هـذا الحـل!

كان هنـاك شـاب يجلـس في ركـن بعيـد مـن التخشـيبة يتـبرَّز عـلى أرضيتهـا.. نظـر هـو إليـه غـير مُصـدِّقٍ فقـال رجـل آخـر:

- الشـخَّة في دورة الميـاه بخمسـة جنيـه، و»التسـييرة» بجنيـه، والـلي مـا معاهـوش فلـوس يركـن هنـا.

وأشار إلى الحائط الذي يتبرَّز أمامه الشاب.

في الحقيقـة كانـت التخشـيبة واسـعة بمـا يكفـي لذلـك، ولـم يكـن مُلحقًـا بهـا دورة ميـاه، وكان هنـاك بـراز رائحتـه لا تُطـاق، ناشـف مـن أيـام سـابقة.

و قال رجل ثالث، مشيرًا إلى الشاب الذي يتبرز.

- أصلـه ابـن وسـخة معفـن، لا يسـتطيع التحكُّـم في نفسـه حـتى الصبـاح.

ثـم خاطـب الشـاب الـذي كان يبتسـم متلـذذًا وهـو لا يـزال يتـبرز...

- ربنا يقرف أمك.

هل ممكن أن تنجاب عنه بعد قليل هذه الرائحة! تصعد وتخرج من النافذة المستطيلة العالية القريبة من السقف، هذه العشر سنتيمترات التي تفصل بين الحائط والسقف والتي يعتبرونها نافذة؟

انفتح باب التخشيبة فأصدر صوتًا ودخل المخبر حاملًا الكباب تسبقه رائحته. كيف وجدت رائحة الكباب طريقًا لها وسط هذا القرف؟

هتف المتهمون «كباب» ونهض الشاب عن التبرز بسرعة رافعًا بنطلونه إلى وسطه. هتف المخبر محذِّرًا:

-كل واحد في مكانه... هذا أكل الأستاذ.

وتقدَّم ناحيته يناوله اللفة الورقية الكبيرة التي كانت ساخنة، وقال:

- اتنين كيلو كباب وعيش وسلاطة وطحينة، وهذا هو الباقي.

وناوله ما تبقى من النقود وخرج مُسرعًا.

لاحظ وهو يضع النقود في جيبه أن نظرات الجميع مُعلَّقة بالكباب. فرد الورقة أمامهم فوق الأرض. أقبلوا عليها بسرعة. قال أحدهم:

- هذا بالكاد كيلو واحد، لكن لا بأس، ويتهموننا بالسرقة! المهم أنه كباب وليس حجارة...

انكبوا يأكلون.، كانوا أكثر من عشرة، في لحظة اختفى كل شيء. كلٌّ منهم طال قطعة واحدة بالكاد. لم يأكل معهم. جلس في ركن بعيد صامتًا.

بدأ يسمع أصواتًا مُبهمة، مزيجًا من صراخ وضرب. بدا أنه قد شرد عنهم بذهنه تمامًا، اقترب منه الذي يبدو أكثرهم إجرامًا، وهمس:

- مالك يا أستاذ؟

- لا شيء. فقط أسمع أصواتًا غريبة.

- هذا من البدروم.

- بدروم؟

- أجل. تحتنا مباشرةً. سلخانة. ضرب وتعذيب على أصله.

فكّر كيف حقًّا يخترق الصوت سقف البدروم الذي هو أرضية التخشيبة ويصل إليهم. لا بُد أن السقف رقيق جدًّا، أو أن الضرب رهيب جدًّا!

وأضاف الرجل:

- في البدروم فلكة وعروسة وكرابيج وعصيان خيزران وزان وكومبروسر للنفخ. كل الإمكانيات في خدمة الشعب في الحقيقة.

ضحكوا جميعًا في صخب، لكن أصوات هرج أقبلت من شرّاعة باب التخشيبة، فقال أحدهم:

- قم واتفرج، تعال، لا تخف...

وسحبه من ذراعه، ومشى به ناحية شرّاعة الباب.

نظر من الشراعة الصغيرة ليرى شابًّا لا يتجاوز العشرين حوله عدد من المخبرين والعساكر، يضربونه بالعصيّ الزان، وبأيديهم وأرجلهم وهو يتقلّب بينهم مثل كرة على الأرض، ومع كل ضربة ينبثق دمٌ من جسده العاري، حيث بدت ثيابه ممزّقة في كل مكان. لم يبق للشاب غير السروال، لكن في لحظاتٍ مزقوا السروال، ثم شبحوه على سور الطرقة المنخفض الذي يحيط بالفناء، بحيث يكون ظهره إليهم، وأدخلوا بهدوء فيه خيزرانةً، فصرخ الشاب من النار التي اشتعلت داخله، وتهدّلت ذراعاه، وتركوه يسقط على الأرض وتهمد حركته. كان هو بدوره قد سقط على أرض التخشيبة وجلس واضعًا رأسه بين يديه مُغمضًا عينيه.

أقبلوا نحوَه في دهشةٍ، وسأله أحدهم:

- ماذا جرى يا أستاذ؟

أجاب بصوت ضائع.

- مات!

- من الذي مات؟

- الشاب الذي كانوا يضربونه.

ضحكوا، وقال أحدهم:

- أنت قلبك قلب عصفورة يا أستاذ! ثم إن الشاب لا بُد قد أخذ برشامة تجعله لا يشعر بأيّ شيء.

وبعد لحظة...

- أنت بتشتغل إيه!

لم يرُد، فأخذ متهم آخر بيده ومشى به إلى ركن بعيد، وقال:

- نلعب كوتشينة، ما رأيكم؟

بسرعة انقسموا إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة من أربعة أشخاص. كان هناك شخص زائد يجب أن يظل يتفرج عليهم، اختار هو أن يكون المتفرِّج، وقبل أن يبدأوا اللعب قال أحدهم:

- وحتى لو مات، ليست هناك مشكلة، من فوق السطح يقع! الطبيب الشرعي سيجد في بطنه حبوب مخدِّرة تكفي لقتل حصان. انتحر...

انخرط هو في بكاء مرير، وهم ينظرون إليه في حيرة حقيقية.

.....

كان الوقت قد اقترب من الفجر. بعضهم نام وصار له شخير مزعج، وانفتح باب التخشيبة ودخل أحد المخبرين يسوق أمامه عشيق المرأة الذي سبق ورآه راشد في حجرة المأمور من قبل. كان الشاب ملفوفًا في ملاءته التي صارت غير منتظمة حوله، زائغ النظرات ذاهلًا، على وجهه علامات رعب كبير. بدا وقد فقد كثيرًا من وزنه، بدا شاحبًا بحق، رغم أن راشد رآه فقط منذ ساعات قليلة. قال المخبر وهو

يشير إلى العشيق:

- أنتم آخر تخشيبة في القسم، وكما فعل المتهمون في التخشيبتين الأخريين أريدكم أن تفعلوا حتى لا يخون رجلًا في امرأته مرةً أخرى... هذا الجبان النجس.

وبعد لحظة صمت...

- قم يا ابن الشرموطة أنت وهو وهو، اقفوا طابور وصحّوا ولاد الجزمة النائمين. سأقف عند الباب، وديني وأيماني من يتأخر منكم سوف أضعه مكانه.

قام اثنان منهم وتلكأ الباقون، لكنهم قاموا متبرِّمين. اقترب الاثنان من العشيق الذي اعترته البلاهة فجأةً وقال على الفور:

- حاضر، حاضر. بس بالراحة والنبي. خلاص، خلاص. ما حدّش يضربني. قولوا لي بس عايزين إيه، أفكّ الملاية؟ أهه.

وترك الملاءة تسقط عنه، بينما أشاح راشد رشاد بعينيه عن الموقف كله. كان يرى ويسمع ويرتعش مع كل كلمة يقولها العشيق.

فاجأه المخبر:

- قبل أن أنسى. أنت يا راشد بك، يا سيادة الأديب، تعال معي، أنت دخلت هنا غلط. البيه نسي أن هناك توصية عليك.

على الفور نهض وأقبل نحوه مُسرعًا، قبل أن يسمح له

المخبر بالخروج كان قد عبر الباب. قال المخبر للمتهمين:

- مسكين... مثقف!

وخرج مُغلقًا باب التخشيبة خلفَه ليجده واقفًا في الطرقة يرتعش، كان الجو باردًا حقًّا، والطرقة بدت لا نهائيةً من طرفيها، رغم أنها تدور حول الفناء المُظلم الذي لا يعلوه سقف. وكانت ستائر الفجر تجاهد لتغمر الدنيا بنورها، ووسط الفناء، على المقعد الذي اندهش لوجوده من قبل، كان الضابط الشاب يجلس ويناديه:

- تعال هنا يا أستاذ سالم.

من فتحة في سور الطرقة انحرف إليه.

- لا تلُمني، الفوضى أنستني توصية الباشا المأمور، لا تخف. اجلس هنا جواري.

كان هناك مقعد آخر قد أُضيف. جلس. ربت الضابط على كتفه، وقال للمخبر:

- هات له شاي بسرعة.

لم يكن يريد أن يشرب أي شيء، ولا أن يأكل. فقط يريد أن تشتد الشمس ليركب العربة الذاهبة إلى النيابة لينتهي من عثرته. وفيما يبدو أن الشمس استجابت له فازداد النور، وسمع صوصوة عصافير تخرج من أعشاشها أعلى القسم، ثم تُقبل من كل ناحية لتصنع مظلَّة فوق رأس الضابط الشاب، الذي قال مبتسمًا:

- لا تندهش. سترى ما لم يره أي كاتب في الدنيا. خبرة تفيدك في الكتابة. ألا تحتاج إلى خبرة جديدة؟

لم يرد. كانت إحدى العصافير قد حاولت الابتعاد عن المظلة فانطلقت حبات رش من بنادق خفية أعلى سطح القسم فعادت العصفورة بسرعة -تصرخ- إلى زملائها فوق رأس الضابط، وبدأت عنابر بعيدة تنفتح ليخرج منها عدد كبير من النساء العاريات يتقدمنَ في طابور أمام الضابط وأمامه.

نظر الضابط إلى راشد رشاد الذي بدا مذهولًا للغاية، وقال:

- شفت شغلنا كم هو صعب؟

ولاحظ أنه شاحب جدًّا، فقال:

- لا تخف يا سالم بك...

تنهد مرتاحًا. ها هو يقول له سالم بعد أن قال له من قبل راشد. سالم أم راشد لا يهم الآن! فلينسَ ذلك كله ولينادِيه الضابط بما يشاء من الأسماء. حتى لو ناداه بناهد. هو في الحقيقة يشعر وكأنه صار شخصًا آخر، فلا هو سالم ولا هو راشد، هو شيء لم يتعقَّله بعد، لم يميِّزه بالضبط. وفوجئ بالضابط يمد ذراعه إلى أعلى ويمسك بعصفورة من بين مظلة العصافير ويضعها بسرعة في فمه ويأكلها على مهل.

كان طابور النساء قد اختفى، وفُتِحَت عنابر أخرى خرج

منهـا رجـال وشـباب عـراة انتظمـوا في طابـور واحـد، كانـت بطونهـم منفوخـة ترتفـع أمامهـم إلى حـوالى متر، وفي إسـت كلٍّ منهـم جـزء ظاهـر صغـير مـن خرطـوم أحمـر مسـدود بقطـن، كذلـك كانـت أنوفهـم وآذانهـم وأفواههـم محشـوّة بالقطـن بحيـث لا تكـون هنـاك أي فرصـة للهـواء أن يتـسرَّب.

مشـوا مُعذَّبـين خلـف بعضهـم، وراح المخـبر الـذي يمـشي جوارهـم يـنزع عـن كل شـخص يصـل إلى الضابـط الخرطـوم الأحمـر الظاهـر مـن إسـته، فيخـرج الهـواء شـديدًا إلى الخلـف لـه صـوت فيندفـع الشـخص إلى الأمـام مهـرولًا بسرعـة كبـيرة، فـلا يـكاد يسـيطر عـلى نفسـه حـتى يسـقط في آخـر الفنـاء وقـد سـيطرعليه ارتعـاش عظيـم وتشـنُّج أعظـم. وهكـذا واحـدًا وراء الآخـر، حـتى إن بعضهـم مـن شـدة الهـواء الـذي اندفـع مـن دُبـره كاد يطـير في الهـواء ويتجـاوز بنـاء القسـم. لقـد رأى راشـد أجنحـةً تنبـت لبعضهـم وتحملـه إلى السـماء... ثـم انطلقـت حبَّـات الـرش مـن البنـادق أعـلى القسـم فعـرف أن عصفـورةً أرادت الهـرب، ورفـع بـصره ليراهـا تعـود إلى المظلـة بالفعـل، ترفـرف بجناحيهـا وتصوصـو بقـوة، ومـد الضابـط يـده، أمسـك بهـا وهـو جالـس ووضعهـا في فمـه.

حـين ظهـر عسـكريٌّ حامـلًا لوحًـا خشـبيًّا كان الرجـال المنفوخـون قـد سـكنت حركتهـم عـلى الأرض وكفـت تشـنجاتهم، وبـدأ المخـبرون يجرّونهـم إلى غـرف أخـرى. ثـم ظهـر مخـبر يدفـع أمامـه متهمًـا ضخـم البنيـان وقـف أمـام الضابـط مرعوبًـا، ولا يعـرف راشـد كيـف اسـتطاع المخـبر بحركـة سريعـة أن يُسـقط المتهـم الضخـم عـلى الأرض.

- نم على جنبك يا بن الوسخة..

صرخ فيه المخبر فنام المتهم على جانبه، وكانت الشمس قد بدأت تصعد فوق الدنيا أكثر ويشتد نورها، ووضع العسكري اللوح الخشبي الطويل جوار المتهم على الأرض.

- نام على جنبك فوق اللوح يا بن الشرموطة.

ونام المتهم على جانبه فوق اللوح، فجلس المخبر على وسطه ووضع في أذنه مسمارًا وقال للعسكري «دقّ».

كانت مع العسكري مطرقة صغيرة، انحنى يدق بها على المسمار، والمتهم يحاول التخلُّص ولا يستطيع من المخبر البارك فوق وسطه، والذى يضغط على جانبه وذراعه بيديه. صار المتهم يصرخ وراشد أشاح بوجهه ناحية العصافير فوجدها ترتعش، والعسكري راح يدق المسمار ويقول للمتهم «علشان تبقى ماتسمعش كلام الباشا يا خول». والمتهم يصرخ «خلاص حرّمت. ح أسمع الكلام» ثم راح يصرخ فقط، ثم صارت أنفاسه شخيرًا متقطعًا، أنفاسًا خافتةً، ثم انقطعت، وصار لوصول المسمار إلى اللوح الخشبيّ من الناحية الأخرى صوت، والعسكري لا يزال يدقّ، وعاد راشد ببصره إلى الأرض ليرى المتهم قد صار هو واللوح الخشبيّ شيئًا واحدًا، رفس مرتين بذراعيه وقدميه، ثم حمله المخبر والعسكري واختفيا به وباللوح معه!

أراد أن يتوسل للضابط أن يتركه يغادر المكان، رأى الضابط يبتسم وهو يمسك بعصفورة ثالثة ويقول:

- خلاص... آخر عصفورة.

وكان هو قد سقط مغشيًّا عليه!

- هيا يا أستاذ إلى النيابة...

استيقظ فوجد نفسه غارقًا في العرق، تلفَّت حوله وسرعانَ ما تذكَّر المكان، إنها حجرة المأمور، لقد نقلوه لينام على الكنبة الجلدية الجديدة. لم يكن المأمور قد أقبل بعد. لم يكن ثمة أحد حوله غير الجاويش الذي اصطحبه أمس من المستشفى إلى القسم. خرج ذاهلًا مع الجاويش يزدحم ذهنه برؤى غريبة لا يكاد يميِّزها. هل كان ما رآه صحيحًا! مشيا في الطرقة الطويلة التي رآها خاليةً تمامًا. أسلمتهما الطرقة إلى الباب الخارجي. رأى المخبر ذا الشارب الكثّ.

- صباح الخير يا أستاذ. تصدق بالله أنت أول متهم ينام في غرفة المأمور.

هكذا قال المخبر وهو يضع يده في جيبي جلبابه، حتى ظنَّه سيُعطيه شيئًا، لكنه أخرج يده بسرعة ومدها إليه مفتوحةً خاليةً. وضع فيها خمسة جنيهات وكان يرتعش من البرد.

لم تكن العربة «البوكس» التي ستُقِلُّه إلى النيابة بعيدةً عن الباب. صعد سُلَّمها الخلفيَّ ومعه الجاويش الذي وضع القيد الحديدي في يديهما معًا.كان كل متهم مقيدًا مع زميل له. يعرفهم ويعرفونه، يبتسمون له، لكنه لا يبتسم. وقال

الجاويش له هامسًا:

- لمكانتك ووظيفتك فضَّلت أن تشاركني في القيد، ولا تضع يدك مع مجرم آخر.

ثم مدَّ له يده الثانية مفتوحةً، فوضع فيها ما تبقَّى معه من نقود صغيرة، ومشت العربة بسرعة تخترق شوارع المدينة التي تستيقظ حوله. «هل كانت حقًّا تستيقظ؟» هكذا تساءل في نفسه.

لقد خرج من النيابة بالضمان الشخصيّ مباشرةً إلى شقته. قال له الجاويش أن هذه حالة نادرة، فالعادة أن يعود المتهم إلى القسم من جديد، ومنه تبدأ إجراءات الإفراج التي قد تستغرق يومًا كاملًا.

وقال الجاويش أيضًا:

- واضح أنك إنسان طيب، لذلك لم يتخلّ الله عنك.

ومدَّ له يدَه من جديد، لكنه لم يلتفت إليها. ليس لأنه لم يعُد يملك أيّ نقود صغيرة، لكن لأنه في الحقيقة لم يكن يراها هذه المرة. وقبل أن يتركه الجاويش وقف يقول له:

- صوتك يا أستاذ تغيَّر جدًّا وأنت ترد على أسئلة المحقِّق. كنتَ تتكلَّم بصوت حريمي! وكيل النيابة كان مذهولًا ولا يصدِّق، وليتكَ كنتَ تتكلَّم بصوت حريمي فقط، بل أيضًا كنت تؤدِّي حركات بيديك وحاجبيك وشفتيك مثل النساء تمامًا. ولا تؤاخذني يا أستاذ كنت تتصرَّف ليس مثل الحريم

العادي أيضًا.

......

في شقته الصغيرة كان أول ما فعله هو أن نظر إلى المرآة. إنها الشقة التي لم يدخلها منذ عام، والتي كان يزمع أن يجعلها مكتبًا يبدأ منه حياته الجديدة في العاصمة. لم ينتبه إلى قذارة الشقة من حوله ورائحة العام المنصرم، كان يستطيع أن يرى نفسه رغم الغبار الذي علا سطح المرآة. كان يودّ بالفعل أن يرى نفسه الآن، رأى فوق رأسه شعرًا كثيفًا ينزل حتى كتفيه، وعلى شفتيه رأى أحمر شفاه ثقيلًا، ورأى حاجبيه مُزجَّجين باللون الأسود، وطالت أهدابُه، ورأى أعلى الجفنين مصبوغًا باللون الأزرق، لون بدلته. خلع الجاكت بسرعة وخلع القميص فوجد تحته كومبين ناعم بمبي! خلع البنطلون فوجد تحت الكومبين كيلوت حريمي صغير جدًّا ناعم شديد الاحمرار!

- 2 -

لم يكن غير «فرح» ينقذه من الحمى التي شملته أسبوعًا كاملًا. كان يجهز الكمادات بالماء المثلَّج ويضعها على رأسه وجبهته.

كانت كل أفكاره السابقة عن فرح أنه ليس إلا تجليًا شيطانيًّا لازمَه منذ فكَّر في الخروج من الصحراء العربية. إنه الجريمة التي ارتكبها، صارت تُلازمه كظلِّه، رغم أنه ليس متأكِّدًا أنه حقًّا ارتكب جريمةً من أيِّ نوع.

كان كثيرًا ما يبدو قادرًا على تقبُّل فرح، والفرح به أحيانًا، واعتباره صديقًا من نوع عجيب، لكنه قبل أن تنقلب به السيارة ومعه زوجته وابنته كان قد رأى فرح يمشي أمام زجاج السيارة في الهواء ويضحك. لقد شغله عن الطريق فوقعت الحادثة التي بعدها اختفى فرح. وقد ظهر له هذا الأسبوع صديقًا لم يتركه لحظة، نزع عنه ثيابه

النسائية وأعاد إليه ملابسه الرجالية، وكل ما فعله هو أن ضحك وهلل وصفَّق بيديه الصغيرتين ثم سرعان ما بدا مُشفقًا عليه مُبديًا كثيرًا من الألم من أجله، وها هو يقف أمام قدميه سعيدًا وهو يراه يقف سليمًا قويًّا يرتدي بدلةً شتويةً جديدةً.

كان فرح قد حلق له ذقنه وعانته وهو مُمدَّد على السرير، وقال له، وهو يلعب بين فخذيه: «صاحبك في مكانه فلماذا كنت ترتدي ملابس النساء الداخلية وتضع مكياجها؟» وابتسم راشد رشاد وهو على يقين من خبث فرح الذي لا شكَّ يعرف ما جرى في قسم البوليس.

وسمع فرح يسأله أين ستذهب الآن؟ فأجاب: «أين يمكن أن أذهب يا فرح إلَّا إلى البار الذي لم يغِب عن ذاكرتي طيلة اغترابي؟ بار برج العذراء الذي انفرد بهذا الاسم غير المتكرر في البارات».

.....

اتسعت عيناه وهو يرى التاكسي يتحرك به بلا سائق...

- إيه يا أستاذ! مساء الخير.

- .....

- حضرتك تضحك وتكلِّم نفسك؟!

السائق موجود ويتكلم إذًا، لكنه لم يرد. رأى الرعب قد جمَّد السائق خلف المقود.

المدينة حولهما صامتة، والوقت ليل، ظلام كثير وبرد ثقيل. زاد السائق من سرعة سيارته، فالشوارع خالية. «لعله يقول أني مجرم أو مجنون. هل يبدو على وجهي عزمي على شيء! سأغتصب كل نساء هذه المدينة. سأترك في أحشاء كلٍّ منهنَّ طفلًا، شيطانًا من الشياطين التي تنحبس في صدري وتجري في رأسي. سيعرف الجميع أني رجل... ثم أبيع شقتي التي سأحوِّلها إلى مكتب وأختفي».

ربما لا يبيعها، يضرم فيها النار. إنه يراها تحترق أمامه. إن عينيه تتسعان للغاية، ينظر إلى الميدان الكبير الذي يخترقه التاكسي الآن على مهلٍ، رغم خلوِّه. على محيط الميدان أعمدة إنارة مُعلَّق بها رجال مشنوقون. إنه يقف تحت أرجلهم يتطلَّع إلى وجوههم التي شاهت من البرد والريح...

- أنزلني من فضلك.

- الحمد لله.

قال السائق ذلك، فسأله:

- ماذا تقول؟

- لا شيء يا أستاذ.

نزل والسائق يرتجف. مد إليه يده بالأجرة، لكن السائق فرَّ بالسيارة قاطعًا الميدان الكبير بسرعة رهيبة، داخلًا في الاتجاه الخاطئ للشارع، بينما ظلَّ هو واقفًا.

البار خلفه تمامًا. إنه لا ينساه. عشر سنوات وهو يتمنَّى

العـودة إليـه، فهـل سـيجد أحـدًا يعرفـه، هـل لا يـزال هنـاك مـن يذكـر راشـد رشـاد؟ الأغلـب أنـه لـن يجـد أحـدًا وسـط هـذا الـبرد القـارس.

......

وجـد شـخصًا بـدا لـه منسـيًّا في البـار منـذ أيـام سـابقة. شـاب يرتـدي بلوفـر رخيصًـا فـوق قميـص مُتسـخ الياقـة، فـوق بنطلـون جيـنز ضيـق جـدًّا، فـوق ذلـك كلـه شـعر أجعـد. بـدا متوحِّـدًا مـع نفسـه، ومـع كـوب البـيرة الـتي يعـب منهـا ولا ينظـر لغـير الزجاجـة، لكـن هـذه السـيدة الصغـيرة الـتي تجلـس في الناحيـة الأخـرى تبـدو أجمـل بالتأكيـد. هـي أيضًـا تـشرب عـلى مهـلٍ مـن كأس البرانـدي. وجههـا خمـريٌّ، وعيناهـا عسـليتان، وفمُهـا صغـير تزمُّـه وهـي تـشرب «الفـم الصغـير يعـني الفَـرْج الضيِّـق، والشـفة الغليظـة تعـني الشُّـفْر الغليـظ، واللسـان الخشـن مثـل البَظـر».

سـالم سـليمان الأديـب المشـهور قـال لـه ذلـك زمـان، حـين جـاء هـو راشـد رشـاد، مـن مدينتـه السـاحلية لأول مـرة إلى العاصمـة. لقـد كان حـول سـالم سـليمان عـدد كبـير مـن الشـباب الضائـع، قـال عنهـم أنهـم أدبـاء في أول الطريـق، وكان هـو قـد قـرأ أسـماء بعضهـم فـوق بعـض القصـص والمقـالات مـن قبـل، وقـرأ لبعضهـم قصائـد أيضًـا. بعـد ذلـك لـم يقـرأ لهـم. سـافر منـذ عـشر سـنوات إلى البلـدة الصحراويـة الـتي لـم يكـن زعيمهـا يسـمح بنـشر شيء لأحـد، هـو وحـده كان يؤلـف كل أنـواع الأدب.

لا أحد من هؤلاء الشباب هنا الآن. هذه السيدة الصغيرة الجميلة لم تكن هنا ذلك الوقت. لم يكن يوجد نساء وكان الحديث كله عن النساء!

ابتسمتْ له لأنه ابتسمَ لها. قامت، فظنَّها ستنتقل إلى منضدته التي جلس عليها، لكنها عادت وجلست مرةً أخرى. لماذا قامت ولماذا جلست؟ لا يهم. ربما لتُريه البالطو الأنيق. قامت من جديد وخلعته ثم وضعته فوق المقعد المجاور. إنها ترتدي بنطلون ضيقًا وبلوز أحمر قصيرًا وضيق جدًّا، ويبرز الاثنان استدارات جسدها وانخفاضاته. قام بشجاعة وجلس أمامها.

- هل أشاركك الشرب؟

صوَّبت إليه عينيها الواسعتين وابتسمت. لم يكن الوقت مناسبًا للبكاء، رغم أن المكان خالٍ إلا منها ومن ذلك الشاب. إن وجود امرأة صغيرة جميلة في أيّ مكان يوسِّع منه ويملؤه بالحركة، ورغم أن حوائط البار بلاها القدم والمقاعد صامتة صمتًا بائسًا، إلا أن وجود هذه المرأة الصغيرة يُشيع حالةً من الانشراح، رغم أن النادل الأسود الضخم جالس وراء الكاونتر، وخلفَه وأمامَه زجاجات وأكواب جامدة، وهو نفسه، النادل، وضع رأسه على يده وأغفى.

البارات هي أجمل مكان للدفء في وقت البرد، والبار الآن خالٍ، لكن هذه المرأة الصغيرة الجميلة تُعيد إليه وجوده كأجمل مكان للدفء حقًّا. لم يكن الوقت أبدًا مناسبًا للبكاء حقًّا، لكنه بكى فجأةً أمامها.. راح يحكي كيف انقلبت سيارته

في الطريـق وهـو عائـد مـن البلـد الصحـراويّ، ولـم يضايقـه أن صوتـه يحمـل خنوثـة صـوت سـالم سـليمان «اسـتيقظتُ مـن الإغمـاء لأجـد عربـة إسـعاف ورجـال بوليـس، وسـيارتي مقلوبـة بعيـدًا. هـل قفـزتُ منهـا؟ لا أعـرف». فتحـتْ فمَهـا دهشـةً، فـكاد يُدخـل إصبعـه فيـه، لـولا أنـه خـاف أن تعـضَّ عليـه.

وراح يحـكي: «قـال لي الضابـط احمـد اللـه عـلى نجاتـك، وفي المستشـفى تذكَّـرت زوجـتي وابنـتي. سـألت عنهمـا قالـوا ماتتـا. قبـل أن أغـادر المستشـفى سـألت عـن الحقائـب والنقـود الـتي كانـت في السـيارة قالـوا ماتـت، ولمـا تفرَّسـت في وجـه الصـول العجـوز الخبيـث مندهشًـا فقـط مـن كـون الحقائـب والنقـود يمكـن أن تمـوت قـال لي لقـد وجدنـا في تابلـوه سـيارتك باكـو هيرويـن مـا رأيـك؟ سـكتُّ ولـم أسـأل عـن شيء مـرة أخـرى. لـم أقـل حـتى لـم يكـن معـي هيرويـن، وقالـت لي الممرضـة إذا كنـت فقـدت زوجتـك وابنتـك فمـا معـنى النقـود؟ لـم أقـل أنـه كان معـي خمسـون ألـف جنيـه، أدركـت أن مبلغًـا كهـذا تافـه لا يسـتحق أن يسـأل عنـه أحـد وسـط هـذا الغـلاء الـذي شـمل البـلاد».

ولـم يتوقـف عـن البـكاء بـلا صـوت، ولـم يشـأ أن يحـكي لهـا مـا جـرى لـه في قسـم البوليـس، وفكَّـر لمـاذا يتذكـر مأسـاته الآن وهـو الـذي قـرر أن ينـسى، في الوقـت ذاتـه كانـت السـيدة الصغـيرة الجميلـة تمـشي بيدهـا عـلى رأسـه الـذي صـار منخفضًـا جـدًّا. والشـخص الـذي يـشرب البـيرة بتبتُّـل كان ينظـر إليـه فاتحًـا عينيـه ويـشرب البـيرة الآن مـن الزجاجـة، وخُيِّـلَ إليـه أنـه يخـرج منـه شيء وصـل إلى الأرض وراح يزحـف. كان لـه

صوت تنفُّس ثعبان وحركته، لكن بلا لسان من أيّ نوع، وكان الهواء الخارج منه يُطيّر البقايا التي تعترض طريقه حتى وصل إلى منضدتهما، وراح يتسلَّق ساق المنضدة حتى ارتفع وتجاوز حافتها وتمدَّد بينهما، ثم فتح فمه. الذي أدهشه بحقٍّ هو أن المرأة الصغيرة الجميلة مدَّت يدها وجذبته نحوها ثم راحت تصبُّ البيرة في فمه قطرةً قطرةً. كانت تحتفظ بزجاجة بيرة جوار كأس البراندي، وابتسمت وقالت:

- مسكين!

وقبل أن يتساءل ما إذا كانت تقصده هو بذلك قالت:

- كل يوم أفعل له ذلك.

كان الشخص الذي يشرب البيرة بتبتُّل يُغمض عينيه في انتشاء هادئ، بينما تجمَّد هو على المنظر. هل ما يراه حقيقة؟ لقد نسي أنه كان يبكي منذ قليل، كادت أحداث قسم البوليس تقفز إلى ذهنه فهزَّ رأسه هزَّات سريعة لتتناثر ذكرياته حوله. لا يريد أن يحكي حتى لا يتشقَّق رأسه ويتفتت على المنضدة. وتركت السيدة الصغيرة الشيء الذي راح يتراجع إلى صاحبه، بينما هو يسأل نفسه كيف تطورت الحياة في البلاد حقًّا. كم تمنَّى يومًا لو أطلق ذَكَرَه يمشي في الطرقات يُعابث النساء والفتيات! ها هو يرى ذلك يتحقق أمامه لشخص ضائع قد لا يستحق كل هذا المجد!

ودخل من الباب مُغنٍّ أعمى يحمل عودًا، أسرع إليه النادل يُمسكه من ذراعه، يساعده في الوصول إلى منضدة

بعيدة، لا بُد أنها مُخصَّصة له. ما إن جلس المغنِّي حتى قال للنادل:

- ألا يوجد غير ثلاثة أشخاص اليوم في البار؟

هتف النادل مندهشًا:

- طول عمري أقول إنك مفتَّح.

ضحك المغنِّي، وقال:

- الأنفاس يا جحش... أنا أسمع الأنفاس.

.....

صوت المغنِّي من الأصوات التي لا يمكن احتمالها إلا في البارات. إنه يغنِّي أغنية فايزة أحمد «بيت العز يا بيتنا» مما جعل صاحب الشيء يتململ، فهو تقريبًا بلا بيت، ولأن راشد رشاد يرى أن البار ليس هو المكان المناسب لأغنيةٍ كهذه، ركَّز عينيه على المرأة الصغيرة الجميلة، التي بدورها قالت له:

- أنا أعرفك جيدًا، لذلك سمحت لك بالجلوس معي، بل إنني طالما تمنَّيت أن أراك منذ اختفائك.

وقبل أن يقول لها اسمه قالت:

- أهلًا بك يا أستاذ سالم.

اتسعت عيناه دهشةً. حقًّا هو يحمل صوت سالم سليمان، لكن هل أيضًا نسيت المرأة الصغيرة صورته إلى هذا الحدِّ الذي جعلها تعتبره سالم سليمان؟ ولماذا

لا تكـون مؤامـرة حبـكَ خيوطهـا المأمـور الـذي كان أول مـن نـاداه بسـالم سـليمان؟ أتكـون عميلـة للسـيد المأمـور؟ إذا كانـت كذلـك فهـي تسـتحق أن يبـدأ بهـا.

وقالت الفتاة، وهي تنظر إليه بإمعان:

- أنـا مـن معجبيـك الكبـار -وتنهـدت- يـا إلهـي! إنهـا قصـة طويلـة. لقـد جربـت مـرةً كتابـة قصـة عـلى طريقتـك. كانـت جميلـة جـدًّا، وأرسـلتها إلى جريدتـك، نشرتهـا أنـت مـع مقدمـة رائعـة تمنَّيـتَ فيهـا لي النجـاح. كنـت سـاعتها في القريـة فتركتهـا وأتيـت إلى هنـا. للأسـف لـم أجـدك ولـم أعُـد إلى قريـتي.. لقـد غبـتَ عنَّـا كثـيرًا يـا أسـتاذ..

صفحـة عنقهـا تبـدو أمامـه في نـداوة الشَّـمع وبريقـه، ممـا جعلـه يمـد فمَـه إليهـا، فاقتربـت بوجههـا منـه وتركتـه يلثمهـا عـلى العنـق، ثـم ضمَّـت رأسـها إلى كتفهـا مـن أثـر الكهربـاء الـتي جـرت في جسـدها. قالـت وهـي تتراجـع برأسـها:

- عشر سنين يا بن الكلب!

زالت الحدود بينهما تمامًا. قال:

- ما رأيك أن نستكمل الشرب في مكتبي؟

- عندك مكتب؟

- أجل.

- ليست شقة إذًا؟

- لا. مكتـب كنـت اشـتريته في العـام المـاضي اسـتعدادًا

للعـودة هـذا العـام.

وقفت ترتدي البالطو، وقالت:

- رائع جدًّا. أنا لا أحب الذهاب إلى الشقق!

ضحـكا. انتبهـا إلى أن المغـنِّي لا يـزال يـردِّد أغنيـة فايـزة أحمـد، وبـان ضيـق شـديد عـلى وجـه صاحـب الـشيء الـذي كان قـد دخـل في البنطلـون الآن..

.....

صفعهمـا هـواء مفاجـئ وزخَّـة مطـر شـديدة، فتراجعـا تحـت البلكونـات. كان لاصطـدام المطـر بـالأرض صـوت نقـرات متصلـة، وفي اللحظـة الـتي فكـر فيهـا بصعوبـة العثـور عـلى تاكـسي توقـف تاكـسي أمامهمـا «لـولا مـا كنـت ادخرتـه في البنـوك قبـل الحـادث لـصرتُ شـحاذًا» قـال لنفسـه بـلا مناسـبة «هـا أنـذا أبـدأ في غـزو مدينتكـم الكبـيرة، سـأبدأ بهـذه المـرأة الصغـيرة الجميلـة الـتي تسـميني بسـالم سـليمان».

كان هـو الـذي التقـى سـالم سـليمان في الدولـة الصحراويـة القريبـة! جلسـا تحـت ضـوء القمـر والنجـوم الـتي تمـلأ السـماء. كانـت الليلـة صيفيـة نسـيمها طـري يبعـث في الجسـد الراحـة وفي الـرُّوح الأمـان. لكـن بعـد ذلـك لـم يظهـر سـالم سـليمان أبـدًا. لقـد مشـيا فـوق الكوبـري المُعلَّـق بـين الجبـال، والخُـضرة تمـلأ السُّـفوح، وفجـأةً قـال لسـالم إنهـا مسـافة كبـيرة جـدًّا بـين الكوبـري وقـاع الـوادي، فقـال سـالم انظـر إلى الطيـور كيـف تصعـد وتهبـط بسـلام، ثـم قفـز. في الحقيقـة صرخ... هـو الـذي

دفعـه في الحقيقـة.. لا يقـين أمامـه. لا يعـرف بالضبـط كيـف مـات سـالم سـليمان. ربمـا مـات بطريقـة أخـرى. مؤكَّـد. لـم يعُـد يـراه بعـد ذلـك!

- مكتبك في دور عالي يا أستاذ.

- لكننا نصعد في المصعد.

- ولو...

بـدت أمامـه أجمـل ممـا بـدت في البـار. هـذا غـزو مبكِّـر للمدينـة. إنـه في الخمسـين مـن عُمـره. ليـس عجـوزًا بمـا يكفـي ليقنـع بالابتعـاد عـن الحيـاة. وليـس شـابًّا فيـه فَـورة الشـباب. الخمسـين منطقـة منحطَّـة ففيهـا تشـتعل المراهقـة في الـرُّوح ويتخـاذل الجسـد. هـذه المـرأة الصغـيرة الجميلـة الكاذبـة لا تبـدو تجـاوزت الثلاثـين. سـتدبُّ الـرُّوح في جسـده مـن أنفاسـها. أجـل يـا سـيدي الضابـط... يـا سـيدي المأمـور!

استدارت فجأةً وأعطته ظهرها.

- اهرش لي هنا.

وأشارت إلى ردفيها، فمدَّ إصبعه يهرش لها.

- خلاص.

لكنها عادت واستدارت مرةً أخرى، وهي تضحك.

- اهرش لي تاني، أصل فيه حاجة بتاكلني.

هـرش لهـا أسرع مـن المـرة السـابقة. ردفهـا طـريّ متماسـك تحـت البنطلـون.

- بس خلاص.

كان المصعد قد توقف. فتح الباب وخرجا. فتح باب المكتب ودخلا. أضاء النور ولاحظت هي أنه ترك باب المكتب مفتوحًا. قال:

- لحظات حتى يدخل أو يخرج.

لم تعرف عمَّ يتكلَّم، لكنه أغلق الباب وقال:

- لقد نسيت، إنه يدخل ويخرج من أيّ مكان.

ابتسمتْ. للحظة اندهشتْ. ارتبكتْ. ابتسمتْ من جديد.

شد انتباهها أن بالصالة مكتبًا خشبيًّا صغيرًا عليه جهاز كمبيوتر في صندوقه لم يُفتَح وبعض أوراق.

- هذا كل شيء؟

تساءلتْ... أجاب:

- هناك غرفة.

كانت الغرفة التي يتحدث عنها أمامَها، بابها مفتوح على الصالة، وكانت صغيرة جدًّا، كما يبدو من السرير الصغير الظاهر فيها. أشارت إلى الثلاجة الموضوعة في ركن من الصالة وسألته:

- عندك شرب؟

- وأكل أيضًا.

دارت حول نفسها ترفرف مثل فراشة. أحضر زجاجة

ويسكي كان قد شرب نصفها من قبل، وجبنًا وزيتونًا، وجلسا على مقعدين متقابلين يأكلان ويشربان فوق منضدة صغيرة سطحها من رخام.

أشارت إلى الحجرة الصغيرة، وتساءلت:

- أهذه هي الحجرة الثانية!

- كما ترين. السرير مباشرةً قرب الباب. حجرة صغيرة جدًّا بالكاد تكفي شخصًا واحدًا.

قامت تعاين الغرفة التي بدت كفتحة مسحورة، وقفت عند الباب تنظر إلى الجدران الخالية من أيِّ شيء فوق السرير. كان هو قد قام ووقف وراءها. ولأنها خلعت البالطو من قبل عند دخولها كان سهلًا أن يمسك ببلوزتها من الجانب يرفعها إلى أعلى، في الوقت الذي بدأت فيه تفكّ أزرار البنطلون. قفزت بسرعة فوق السرير الذي بدا مُخصَّصًا لشخص واحد. ضحكت وقالت:

- أرني كيف ستصعد أنت الآن!

- فوقك. لا حلَّ آخر.

- يا مكَّار. لقد اشتريت سريرًا ضيقًا لهذا السبب!

كان مندهشًا لجسدها النحيل كيف يحمل هذا الصدر الوثير، وكان اندهاشه أكثر لبطنها الضامرة شديدة الانخفاض، ونظر كيف علا فخذاها حتى أخفيا ما بينهما. سقطت ملابسه عنه وامتدت يدها الصغيرة تسحبه من العصا التي انبثقت منه.

- طيب، سأصعد، لا تدفعني هكذا!

سمعته واندهشتْ... تساءلت:

- أنتَ تكلِّم أحدًا آخر؟

لم يرد. تذكرتْ ما فعلَه حين تُرك الباب مفتوحًا. وانتبهت إلى أن ملابسه قد زالت عنه دون أن تمتدَّ يده هو تقريبًا. تأكد لها أنه شخص غريب الأطوار. لقد استبعدت بشدة أن يكون هناك شخص ثالث معهما. وانقلبت بسرعة على بطنها.

«كان سالم يحدثني كثيرًا عن اللذة غير العادية لإتيان النساء من الخلف. رأيت بدو الصحراء يفعلون ذلك في الرجال والغلمان. تذكَّرت الحديقة الرومانية بالبلدة الصحراوية التي عِشت فيها عشر سنوات. السيارات التي تأتي مع المغرب تحمل النساء إلى الشقق والأوتيلات. الأسعار غالية والبلدة فقيرة. ولما جرَّبت ذلك شهقت العاهرة الصغيرة وأنا أطلب منها أن تأتي معي إلى البيت، وقالت وهل أذهب إلى غير البيوت؟ كم تدفع؟ قلت مائة دولار، قالت الحمد لله إذًا أنت من حزب قدَّام. قلت أنا لم أجرب الخلف أبدًا ولا أظن أني أحبه. قالت إذًا سآتي معك بالمائة دولار، لكن إذا غيرت رأيك تزيدها خمسين دولار فأنا لا أعطي أحدًا ظهري بسهولة، ثم ضحكت وقالت على العموم أنتم في بلادكم لا تحبون الوراء، تحبون فقط أن تهربوا قبل الدفع. تامون مع النساء ببلاش! وفتحت يدها تستقبل المائة دولار

مُقدمًا».

- لماذا تقف صامتًا؟

تساءلت المرأة الصغيرة الجميلة فمال فوقَها.

كل شيء فيها دافئ إلا المؤخرة. لا بأس.. على مهلك. قالت... روحه تنسحب منه الآن. لا بُد أنها تتلذذ أكثر منه. إنها طريقة لا تصلح للانتقام، وهو يريد الانتقام، لكنها صرخت فاندفع خارجًا عنها...

وراحت تخبط رأسها في المخدة وتضرب بكفَّيها جانبي السرير وتنتفض. لم يكن قد أطفأ نور الغرفة، لكنه رأى الظلام حوله من كل ناحية. إنه لا يرى. حقًّا لا يرى. كيف لا يرى وهو يملك عينين؟ قفز بسرعة نازلًا عنها مبتعدًا عن الغرفة. وهو يصرخ «عندي مسكِّن للألم». وراح يبحث في كل أدراج المكتب ودولاب الملابس الصغير، وهرول إلى حجرة المطبخ يبحث في أدراجها، وفتح باب الثلاجة أيضًا فعثر فيه على الروبالجين الذي لا يعرف متى اشتراه، وعاد إليها مُسرعًا، لكنه وقف حائرًا وأنبوب المرهم في يده.

- ادهن... بسرعة.

- كيف؟

- بإصبعك.

قالت وهي تنتفض بمؤخرتها وتضرب جانبي السرير بيديها. راح يدهن. في البداية صرخت. شيئًا فشيئًا استجابت للصمت. كانت أنفاسها تتلاحق. شيئًا فشيئًا تباعدت. تنهدت في النهاية

تنهيدة طويلة وشخرت شخرة طويلة ونامت. ماتت. قال في نفسه مرعوبًا وهو يراها ممتدة أمامه جميلة كشعاع من نور «لا يمكن أن تكون عميلة للمأمور ولا لأيّ جهة كانت. يا لها من مسكينة معذبة!» سمع أنفاسها. انقلبت على ظهرها بهدوء فتنفَّس مرتاحًا.

- ماذا فعلت؟

- لا شيء.

ابتسمت وهي تشير إليه.

- أنت عريان!

ابتسم... قال:

- وأنتِ أيضًا.

- لا تؤاخذني.

- سأذهب أغسل يدي في الحمام.

- يديك فقط؟

- كله... كله.

ابتسمت متهافتةً. ذهب يغتسل وعاد فوجدها قد ارتدت ثيابها، لكنه لاحظ أن الكيلوت لا يزال على الأرض!

- كيف أراك؟

- في البار في المساء في أيّ يوم. في برج العذراء يتجمع كل الأحباء يا أستاذ...

أشار إلى الكيلوت.

- خليه عندك. تذكار.

ابتسمَ... قالتْ:

- أنا أعرف أن الرجال عيونهم فارغة. ولو كنت أقدر كنت تركته لك ملآن. لكن تخيل أن أترك لك فيه أعز ما أملك كيف أمشي بين الناس. من سينظر إليَّ؟

ضحكا بصوتٍ عالٍ. قبَّلته ونزلتْ. تناول الكيلوت ورغبة تشدُّه ليشمه. صعدت إليه أبخرة المِسك. ما أجملها فتاة! لكنه لم يعرف اسمها. لم يسألها. وفكَّر وهو مُأتلِق العينين أن فكرة الاحتفاظ بكيلوتات النساء رائعة حقًّا. سمع صوت ضحكات رفيعة في الصالة. نظر فرأى «فرح» يخرج من الباب والكيلوت في يده. كيف أخذ الكيلوت من يده دون أن يشعر بذلك حقًّا!

- 3 -

في الصباح تقاطرت الفتيات طالبات العمل. كان قد طلب من كبرى الصحف في اليوم السابق على خروجه من المستشفى أن تنشر إعلانًا بوظيفة سكرتيرة حسناء لكاتب وأديب يقع مكتبه في العاصمة، وفي الإعلان العنوان. اليوم ظهر الإعلان في الصحيفة، ومنذ العاشرة والفتيات تُقبلن على المكتب.

في الساعة الأولى استقبل عشر فتيات لم تعجبه واحدة منهن. لقد تغيرت نظرته للمسألة أربع مرات، في الأولى كان وهو عائد من الدولة الصحراوية يفكر في هذا الاعلان ليوظف حقيقة سكرتيرة حسناء تجيد الكتابة على الكمبيوتر، لتنظم وقته وتكتب مقالاته وقصصه التي سيبدأ بها حياته الأدبية الجديدة بلا خوف من فقر أو منافسة، وفي المستشفى فكر أن لا يفعل ذلك بعد أن أدرك موت زوجته وابنته، وقبل

الخروج قرر أن يعود للإعلان عن هذه الوظيفة، لأنه لم يعُد له إلا الأدب والكتابة، وبعد خروجه من قسم الشرطة قرر الفتك بكل الناس... على الأقل الآن.

في الساعة التالية استقبل عشرين فتاة بينهن عشر فائقات الجمال. لاحظ أنهن جميعًا كاذبات يتحدثن عن عائلاتهن المحترمة وأماكن سكنهن الراقية. ما الذي يجبرهنَّ على هذا العمل إذًا! أخذ عناوينهن وأرقام تليفوناتهن وقال أنه سيرسل إليهن في الوقت المناسب. لم يبدُ أنهن تألَّمن رغم أنه أراد تعذيبهن. كان واضحًا أنهن تعودن على التقدُّم إلى أعمال كثيرة والعودة دون الحصول عليها. وجد بينهن عددًا على استعداد لعمل أيّ شيء. لم يعجب بهن. إنه يريد الصنف الخجول الصامت الرقيق الباحث بحق عن عمل شريف. يريد هدم الحصون. استبقى واحدة من هذا الصنف وقال:

- رتبي معي عناوين وتليفونات المتقدِّمات.

جلست معه تستقبل الفتيات وتفعل ما طلبه. لقد تدفقت الفتيات إلى درجة أنه طلب منهن الوقوف في الردهة أمام الشقة، فالصالة صغيرة لا تستوعبهن. كان منظرهن وهن واقفات في الردهة بين أبواب الشقق الأخرى يراهن السكَّان مخجلًا حقًّا. لكنهن دخلن مع بعضهن في أحاديث وثرثرة، مما جعلهن لا يرين شيئًا حولهن. عند الساعة الخامسة انقطع وصول الفتيات. لم يكن يفعل أكثر من أن يسأل كل واحدة منهن عمَّا إذا كانت قد عملت من قبل

وأين، وهل تعرف ما هو واجب السكرتيرة، ثم يتفحصها من أعلى إلى أسفل، وكان يرى جسدها مضيئًا تحت الثياب. كانت نظراته تنضو الثياب عنها. ورغم ذلك تعب. حتى إذا لم يعد موجودًا غيره هو والتي استبقاها جلس خلف المكتب الخشبيّ واضعًا رأسه بين يديه متكئًا على المكتب بمرفقيه. كان الكمبيوتر يشغل مساحةً من المكتب.

- مالك يا أستاذ؟

تساءلت البنت الرقيقة.

كاد يصرخ، هل بقي أحد اليوم لم يأتِ إليَّ في البلاد؟ لكنه قال فجأةً:

- أرهقتني البنطلونات الضيقة. تُرى كم مؤخرة رأيتُ اليوم!

بدا على وجه الفتاة الرقيقة وَقع الصدمة. وهو انتبه إلى ما قال.

-آسف جدًّا، لا بُد أنني تعبتُ بحقّ. أحضري لي زجاجة الويسكي.

ترددت لحظةً.

- مالك؟

- لا أعرف الويسكي.

- هي زجاجة واحدة هاتيها.

استدارت. ابتسمت بعد أن استدارت، بينما كان هو يركز عينيه على مؤخرتها الصغيرة. كم هي جميلة الاستدارة! هي الانتقام الثاني. الأولى... لا يجب أن يحصي الفتاة التي نسي أن يسألها عن اسمها!

جلست البنت على مقعد مواجه للمكتب، بعد أن وضعت أمامه الزجاجة وكأسًا أحضرته من المطبخ. صبَّ لنفسه الكأس ونهض ليجلس جوارها. فلأجرِّب فإذا جفلت أرسلتُ لغيرها غدًا. ما أكثرهنَّ الآن!

- هل تحب بعض النساء الإتيان من الخلف؟

قال ذلك فجأةً. تراجعت في ذعر إلى آخر المقعد الطويل. بل وقفت مرعوبةً.

ظل هو ينظر إليها وهي تتكلم في غيظ:

- حضرتك طلبت مني العمل لتسألني عن ذلك!

ابتسم ووقف...

- لا تخافي.

اقترب منها والكأس في يده. بيده الأخرى مشى على رأسها. لا تخافي يا صغيرة. أنت صغيرة جدًّا أنا أعرف، وأنا مثل كينج كونج. الفتاة الصغيرة أحبَّت كينج كونج في الفيلم الأميركي. ألم تشاهديه؟ كانت تبتسم وهو يضمُّها برفق إلى صدره. همست:

- أقول لك السبب؟

- قولي...

- هـؤلاء عـادةً عاهـرات يخفـن مـن الحمـل، حبـوب منـع الحمـل تسـبِّب السرطـان، واللوالـب تضيِّـق خُلـق النسـاء، والأهـم مـن ذلـك أن بعـض السـيَّاح العـرب يحبـون الخلـف.

كان يُقبِّـل رأسـها وجبهتهـا البـاردة وهـي تقـول هامسـةً بـلاش... لأ، حـرام. وبيديهـا الصغيرتـين تفـكّ أزرار بنطلونـه. وحـين لامسـت يداهـا جسـدَه كان لهمـا ملمـس أرنـب، وبسرعـة كانـت قـد أمسـكت بـه وأخرجتـه مـن البنطلـون وهبطـت عـلى الأرض... إنـه يـشرب الآن الويسـكي ويتلـذذ بالألـم. يتألـم باللـذة فـلا فـرق. يـده تعبـث بشـعرها وهـي تقـوم بعملهـا ولا تتقطـع أبـدًا أنفاسـها فأنفهـا مفتـوح للغايـة...

كانـت هـذه أول مـرة يفعـل فيهـا ذلـك، وكان خائفًـا بحـقّ، وجـدران الغرفـة تتـلاشى مـن حولـه. سـيراه النـاس في الدنيـا كلهـا وتصـير فضيحـة وهـو يهـتز ويـكاد ينخلـع عـن الأرض وهـي تتشـبَّث بيديهـا بقـوة في ردفيـه. ولمـا تركتـه كانـت الـكأس قـد سـقطت عـلى الأرض وانكسرت، واندفـع هـو إلى الخلـف هاويًـا عـلى الفوتيـل في اسـترخاء عجيـب، ينظـر إليهـا فيراهـا وسـط غبـش وضبـاب كأنهـا حلـم نهـار...

- يا بنت الكلب!

قـال وهـو في منطقـة العمـاء الكامـل. وحـين فتـح عينيـه بعـد لحظـات لـم يجدهـا.

- تعال... أنا هنا.

أتاه صوتها من الحجرة.

نهض يمشى مُباعدًا ما بين ساقيه، ينظر إلى خيط المنيّ الذي يتدلَّى منه، ويسقط على الأرض. كان البنطلون والسروال إلى أسفل عند قدميه. فأخرج قدميه منهما، وخلع حذاءيه والبلوفر والقميص والفانلة، ومشي عاريًا إلى الحمام ليغتسل. تحت الماء ضحك وقال لنفسه «بنات اليوم فيلم رومانسي قديم لعبد الحليم حافظ لا يعني شيئًا الآن»

.....

- قبل أن تصعد لي شرط.

- اشرطي.

- مرتان... ومرة من الأمام.

سكت لحظةً. هل يقدر على ثلاث مرات؟ هذه الخمسين سنة! قال:

لا فائدة. وربما تدرك أنه لن يقدر إلا على مرة أخرى. لكنه تشجَّع. من يدري! قد تتفجر فيه بئرٌ منسيةٌ في جسده باللبن والعسل. ربما هناك فيضٌ قديمٌ من الخصب مختبئ فيه، وطاقات الإنسان لا تنتهي إذا أراد..

كانت تتأوَّه بصوت. فكَّر أنه قد يصل إلى الشقق المجاورة، ثم كاد يهمد بحق وهو يتذكَّر الفتاة التي نسي اسمها.

تراجع عنها وهو يشعر بجسده يشتعل. لقد عرف السيَّاح العرب عظمة الباب الضيق قبل أن تخترع أمريكا

الجينز. قال لنفسه وهو يتراجع مهتزًّا لا تكاد ساقاه تحملانه.

- أنت تكلِّم نفسك؟

- لا تهتمي. كثيرًا ما أفعل ذلك.

مشي إلى الصالة وارتمى على أقرب مقعد فاردًا ساقيه، ذاهلًا عن نصفه الأسفل تمامًا، مُعلقًا بصرَه بالسقف. تذكَّر فرح، كيف اختفى اليوم! سيأتي اليوم الذي يتخلَّص فيه منه. وما دام لا يظهر في مثل هذه الأوقات فهي سبيل الشِّفاء من القتل. لم يقتل. من الشعور بالإثم. لم يأثم. كاد يبكي متوسِّلًا أن يرى فرح!

أتت البنت نحوه عاريةً، لكن الحزن كسا وجهها بشكل مفاجئ. كانت دمعة في عينيها. هل تفعل ذلك لأول مرة؟ هل تفعل ذلك لتفوز بالعمل، لتأكل؟ لكنها تبدو مجربة جدًّا. جلست جواره ونظرت إليه.

- ساعات أتمنى أقتل خالي.

-.....

- وساعات أريد أن أشكره.

- ولماذا تريدين أن تقتليه.

- هو الذي اغتصبني. خالي سياسي كبير. هو يقول ذلك. أمي كانت تقول عنه ذلك. لكن عمري ما رأيت صورته في جرنال أو مجلة.

- ولماذا تركتيه يفعل ذلك؟

- أتى مرةً ليختبئ في بيتنا من المباحث. كانت المباحث تطارده دائمًا. نحن نعيش في غرفة واحدة أنا وأمي وخمس إخوات. أبي ينام في الجراج الذي يعمل فيه. أمي قالت هذا خالكم يا أولاد ليس غريبًا سينام وسطكم على الأرض. نام جواري. في منتصف الليل أحسست بشيء ثقيل بين فخذيَّ. كانت يده، رماها عليَّ. قلت ربما غصبًا عنه. بعد لحظة سخنتْ يده وسخنتُ أنا. بدأ يهرش لي بإصبعه. قلت لنفسي يعني ح يعمل إيه؟ هذا مجرد إصبع وأنا لابسة كيلوت ضيق وجديد. تركته. لحظات وبدأ فخذاي يبتعدان عن بعضهما، شعرت أن جسدى كله يصرخ وأريد أن أشدَّه فوقي. هو لم ينتظر. رفع جلابيتي وبرك فوقي. أنا كنت سخسخت. كتم نفسي بيده حتى لا أصرخ. وأنا كنت أريد أن أصرخ، ليس رعبًا ولا رفضًا، لكن من النار اللذيذة التي تدور داخل جسدي. عمل عملته ومسحني بمنديل ورق طلعه من جيبه.

- ألم ينتبه أحد من إخوتك؟

- قلت لك كتم نفسي، وإخواتي شغّيلة في المحلات شقيانين، نايمين ميتين، وأمي شقيانة من الخدمة في البيوت.

مد ذراعه يحتضنها. بدت صغيرةً جدًّا تحت ذراعه. كيف حقًّا نام فوقها وهي صغيرة بهذا الحجم! النساء مهما بدون أصغر من الرجال فعند الجنس يحتوين الرجال، يصير الرجال أقزامًا في أحضانهنَّ.

- ماذا فعلتِ بعد ذلك؟

- لا شيء. خالي تعوَّد. هربان أو غير هربان من المباحث كان يأتي ينام عندنا. اشترى لي شريط منع الحمل.

قال في دهشة شديدة:

- لهذه الدرجة؟

- وأكثر. لو تعرف الثاني تستغرب، ولن تصدق.

- مَن؟

- أبي..

- مستحيل!

سكتتْ ونظرتْ إليه طويلًا.

- أين كنت قبل اليوم؟

- في دولة عربية. لكن لماذا السؤال؟

- معك حق أن لا تصدقني. الدول العربية لا ينام فيها كل عشرة أو حتى خمسة في غرفة. أنا على استعداد أعرفك على بنات كتير باظت من أهاليها. وأنت أكيد قرأت عن الجزار الذي نام مع بناته الأربعة.

- فعلًا. قرأت في الخارج عن الحادثة.

كيف يتخلَّص من هذه الكارثة التي انفجرت أمامه! سيُعطيها خمسين جنيهًا ويطلب منها أن لا تأتي.

- ما رأيك تساعدني وتقدّمني لأصحابك العرب!

ابتسم مندهشًا...

- أنا ليس لي أصحاب عرب.

- لقد قلت إنك كنت في بلد عربي.

سكت لحظةً مرتبكًا، ثم قال:

- طيب. إن شاء الله سأفعل ذلك.

- وأصحابك يقدموني لأصحابهم.

ثم أضافت بسعادة:

- ياه! هكذا أشتهر في كل البلاد.

ضحك بشراسةٍ. ونظرت إليه مندهشةً، ثم قالت:

- لماذا فتحت هذا المكتب؟

- أنا كاتب وأريدك أن تكتبي لي قصصي ومقالاتي..

- لو قدمتني لأصحابك أكتب لك أحسن كتابة.

عاد يضحك وعادت تتكلم...

- أصل أنا نفسي أشتغل كده، ولا أعرف الطريقة. خائفة. أنت تشجعني وينوبك من الحب جانب. وعلى فكرة أنا أقدر أقدّم لك بنات أبكار بختم ربها تدخل عليها بنفسك.

- أنتِ شيطانة حقيقية ولا يبدو عليك ذلك أبدًا!

هزَّت رأسها..

- ومَن الذي يبدو عليه أيّ شيء؟ عندك خالي يتكلم عن الحرية والعدالة ثم يغتصبني. لكن والنبي باحبه...

ابتسم...

- لذلك تريدين أن تشكريه؟

- عرفني حاجة حلوة. ثم إنه لا أحد يتزوج الآن إلا بعد الأربعين، وساعات الخمسين.

نسي رغبته في التخلُّص منها. بدت ساذجةً فقيرةً. أعطاها مائة جنيه. هتفت:

- مرتب شهر؟

- لا، اليوم فقط.

تعلَّقت بعنقه تقبِّله.

- طيب إيه رأيك تنام معايا تاني؟

- لماذا؟

- علشان تبقى فلوسي حلال..

ضحك لحظات طويلة، وظل يضحك وهو عار ويفكر في هذه الشيزوفرنيا الشائعة عند العاهرات بينما هي ترتدي ملابسها، ثم انطلقت في ضحكة مُبهجة وهي تحملق فيه، وقالت:

- شيء غريب..

- ما هو الغريب؟

- عندنا في الحي واحدة ولدت الأسبوع الماضي.

اندهش وابتسم...

- وماذا في ذلك؟ كل النساء تلد!

- لكن هذه ولدت جحش..

حملق فيها في غاية الاندهاش. فواصلت:

- طبعًا لن تصدق.

- أنا ممكن أصدق كل شيء لكن هذا صعب..

- ولدت جحشًا حقيقيًّا صغيرًا وله أربع أرجل. تفتكر تكون نامت مع حمار؟

ضحك وجلجلت ضحكته.

- شكلك لا تصدقني!

- أصدقك.

- اراك على خير.

وخرجت على أن تأتي في الغد، وعاد هو يضحك حتى أحسَّ بتعبٍ شديدٍ. خاف على نفسه بحق. كيف نسي أنه خارج من المستشفى بعد شهر من العلاج الذي أعاده إلى الحياة! تمدَّد على المقعد الفوتيل واسترخى...

.....

«يا إلهي لماذا أكاد أفقد الوعي!»

تساءل في نفسه. أتاه الصوت العجيب لفرح:

- إنكَ بعدُ لم ترَ. المهم أن تتحمَّل. ثم إنك لم تقدر

عـلى الانتقـام.

ثم رآه يضحك مبتهجًا في أرجاء الصالة.

«سالم سليمان ظهر في البلاد!»

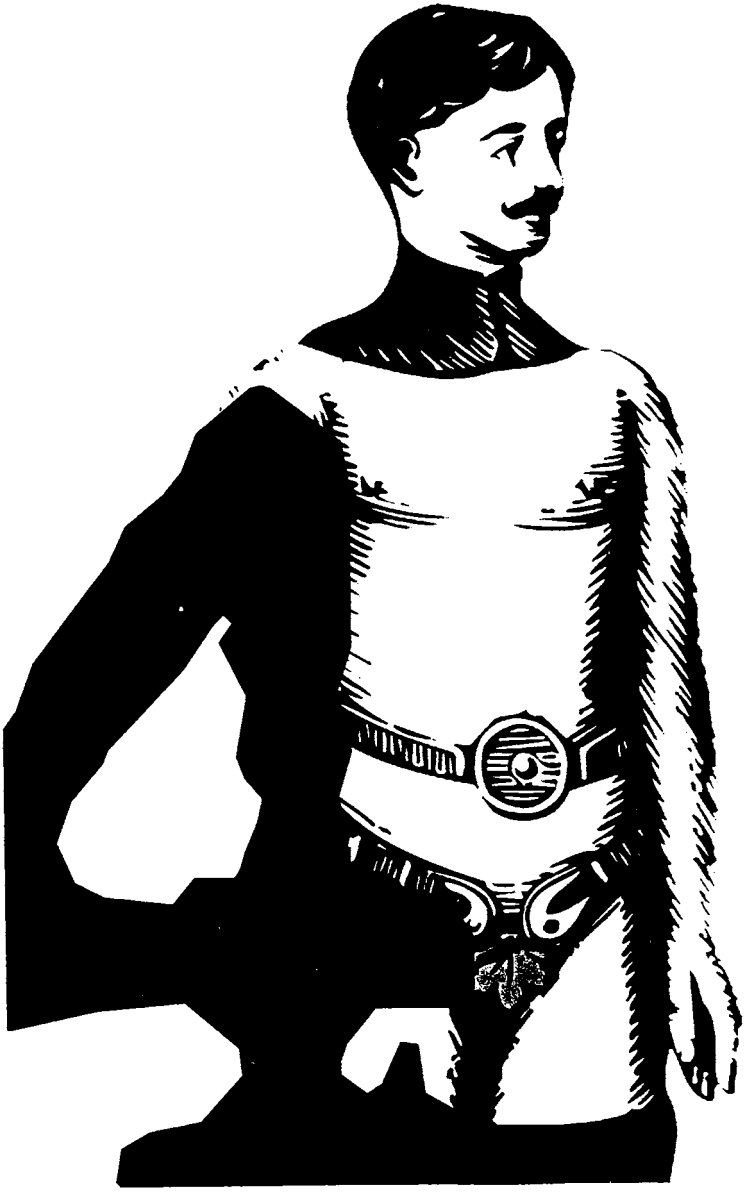

- 4 -

«يتردد بشدة وجود الكاتب سالم سليمان في العاصمة. كان سالم قد اختفى منذ سنوات بعد زيارته لإحدى الدول العربية. قيل أنه قتل وقيل أنه مات، وفي كل الحالات لم تظهر جثته. كاتبة شابة قالت أنها رأته وأكدت أنها أمضت معه وقتًا طيبًا».

ألقى بالصحيفة على الأرض ووقف غاضبًا. لقد نشرت الفتاة التي نسي اسمها الخبر وجعلته يصل إلى الصحف. لم يكن يدور بذهنه أنه سيصبح بسرعة محلَّ اهتمام الناس. وهو لا يستطيع أن يُعلن أنه سالم، هو لا يرى وجهه إلا وجه راشد رشاد. يتآمر عليه الجميع أم يتآمر هو على نفسه؟ أيكون سالم بالفعل وراشد رشاد هو الذي اختفى؟

لكنه يتذكر اللقاء الأخير بينهما حين حدَّثه سالم بين الجبال الخضراء عن خيرات الجبال الخضراء، عن ينابيع المياه التي لم تتوقف منذ مرَّ عليها اليونان. عن الكهوف

التي يعيش فيها النحل منذ آلاف السنين. عن عسل النحل النادر الذي لا يصل إليه أحد. عن التين والأعناب والزيتون التي لها طعم العسل والتي حرَّم الحاكم على الناس جمعها، فراحت الأشجار من يومها تبكي مثل أم ينزل لبنُها حنينًا لطفلها الضائع. وتذكر كيف طاف به في الثنايا وبين التلال حتى وقفا فوق الكوبري المُعلَّق منذ الحرب العالمية الثانية.

«أنا الذي أخذته في هذه الجولة في الحقيقة. أنا الذي كنت أعمل هناك وكان هو مجرد زائر. زائر للمرة الأخيرة. زائر شريد ترك موطنه الأصلي بلا سبب معروف، وراحت تحمله الريح من بلد إلى بلد. من يومها وصوتي هو صوته الأنثوي!»

من يومها وفرح يمشي معه. فرح أم الشيطان لا فرق يا راشد... وأخذ طريقه إلى البار. للفتاة التي نسي اسمها ليحذِّرها من الحديث عنه في أي مكان.

.....

ما إن هلَّ بطلعته حتى نادته الفتاة بشغف. لاحظ أن صاحب الشيء يجلس بعيدًا لا يظهر منه شيء، وأن المغني يأكل ويشرب ولا يغني، وأنه إلى المنضدة معها جلس رجل في حوالي الخمسين، له ذقن خفيفة تستدير حول وجهه المستدير، ورجل آخر في حوالي الأربعين. الذي في حوالي الخمسين لم يبدُ له مصريًّا، والرجل الأربعينيّ يحمل وجهًا مألوفًا لكنه لا يتذكَّره. وقف الرجلان يصافحانه. بدا له

الرجل الخمسينيّ حزينًا مُعذبًا. بادره بالقول:

- لم أكن أتصور أن أراك بسرعة يا أستاذنا. الحمد لله الذي وضع هذه الفتاة في طريقي لتطلب مني أن أنتظرك.

لم تكن الفتاة التي نسي اسمها قد وقفت مثلهما. قالت تُشير إليهما:

- أسعد سعيد كاتب السيناريو المعروف وبو علي وزير سابق.

رأى فرح يجلس فوق رأس بو علي يضحك، فارتبك. كان يريد أن يسأل الرجل الخمسينيّ، بو علي، كيف حقًّا يُناديه هو أيضًا بسالم سليمان، في الوقت الذي فكّر أنه لا يعرف ولم يسمع عن كاتب سيناريو باسم أسعد سعيد، لكن فرح أربكه تمامًا...

استطاع بعد تردُّد أن يتكلم.. سأل بو علي:

- هل سبق لك معرفتي؟

- وهل يخفى القمر يا أستاذ! مَن في العالم العربي لا يعرف سالم سليمان كاتب المقالات الحر وصاحب الرسائل الجريئة والروائيّ الفذ. بلادنا كلها تقرأك حتى الآن. حتى أيام الخلاف بين دولتينا كنَّا نقوم بتهريب الصُّحف التي تكتب فيها.

سكتوا جميعًا لحظات. لاحظ سالم أن صاحب الشيء يتابعهم بعينيه باهتمامٍ، وفكّر أنه قد يُطلق إيره على الجميع الآن. هذه حقًّا لحظة مناسبة، لكن بو علي قال:

- لكنك اختفيت كثيرًا يا سيدي.

نظر راشد إليه بجِدَّة، وتساءل:

- ماذا تريد بالضبط؟

- أن تسمعني. خذني إلى مكان بعيد هادئ. أنت الذي ستُنقذني وتُنقذ وطني.

فكَّر قليلًا، ثم قال:

- ولماذا لا تحكي أمام الجميع؟.

- إنها قضية لا يدرك أبعادها إلا كاتب مثلك عركته الحياة.

قال أسعد سعيد كاتب السيناريو:

- أنا أيضًا عرفتُ بظهورك فجئتُ لتسمعني.

وتقدم إليهم صاحب الشيء يحمل مقعده ليجلس جوارهم، ويقول:

- أنا أولى بكم أن يسمعني الأستاذ..

وهنا هتفت وداد في صاحب الشيء:

- حكايتك كتبها أسعد سعيد وتقدَّم بها إلى التلفزيون لتحويلها إلى سهرة لكنها رُفِضَتْ. رفضتها الرقابة.

قال صاحب الشيء:

- لكن لا بُد أن يسمعني الأستاذ. أسعد كاتب فاشل.

ابتسم راشد رشاد مندهشًا من هذا الموقف العجيب،

الـذي زاد في غرابتـه قـول أسـعد:

- أنـا يـا أسـتاذ منـذ رحيلـك مطـرود مـن جنـة التلفزيـون بسـبب محاولـتي تحويـل إحـدى قصصـك العجائبيـة إلى فيلـم تلفزيـوني. قصـة الحاكـم الـذي ظـلَّ يخطـب في الشـعب ثلاثـة أيـام كاملـة، تحـوَّل الشـعب بعدهـا إلى أعمـدة بيضـاء مـن الملـح.

هتفت وداد:

- اللـه أكـبر. لدينـا إذًا ثـلاث قصـص. قصـة بـو عـلي وقصـة صاحـب الـشيء وقصتـك العجيبـة يـا أسـتاذ -ثـم حدَّثـتْ بـو عـلي- سـيادة الوزيـر السـابق لمـاذا لا تحـكي قصتـك أمامنـا ليقـوم أسـعد بتحويلهـا إلى فيلـم قـد توافـق عليـه الرقابـة وتنتهـي عقدتـه مـع التلفزيـون.

هزَّ بو علي رأسه في يأس، وقال في هدوء:

- يـا سـت وداد أنـا مـا جئـت لأحـكي إلا للسـيد سـالم. إذا لـم يأخـذني السـيد سـالم إلى مـكان هـادئ بعيـدًا عنكـم سـأشرب معكـم زجاجـة بـيرة وأمـضي.

رأى راشـد في وجـه الرجـل الأحمـر كثـيرًا مـن الذلـة والانكسـار. رجـل في هـذا العمـر وغريـب جـاء خصيصـا لـيراه، لا يمكـن أن يهـذي. ثـم إنـه غـير مرتـاح لانضمـام صاحـب الـشيء إليهـم، كمـا أنـه لا يعـرف شـيئًا عـن القصـة العجيبـة الـتي ينسـبها إليـه أسـعد سـعيد. الأفضـل أن يبتعـد عـن هـذا الموقـف الـذي لا يـشي بغـير الجنـون. وقـف...

- هيا معي يا سيدي إلى البيت.

- الله أكبر. هذا ما كنت أنتظره.

هكذا قال بو علي، وهو يقف منتشيًا سعيدًا..

ولاحظ أن فرح عاد يقف فوق رأسه يضحك ويصفق...

.....

- بلادنا جميلة يا أستاذ، لكن أفسدها الحكّام..

قال بو علي ذلك وهو يتناول فنجان القهوة الذي أعدَّه راشد له.

- أرجوك أنا لا أحب السياسة.

ابتسم بو علي وقال:

- ومن تحدث في السياسة؟ اصبر. أنا سأحدثك عن الموسيقى...

شملهما الصمت لحظاتٍ وهما يحتسيان القهوة. ما إن وضع الرجل فنجانه على المنضدة الصغيرة التي تتوسط المقاعد حتى قال:

- الحاكم في بلادنا كل شيء، والناس جزم!

وبسرعةٍ أضاف:

- لا تقاطعني. لا يذهب فكرك بعيدًا. سأدخل بسرعة إلى الموسيقى.

تنهَّد راشد في استسلام، واستمر الرجل في الكلام:

- حاكمنا ترك الناس تفعل ما تشاء، تبيع، تشتري، تزرع، تصنِّع، تتعلَّم، تسرق، تتاجر، ما تشاء. حتى الأحزاب أطلق حرية تكوينها، فبلغت المائة، لكنه طلب من الشعب أن يُعطيه شيئًا واحدًا، أن يضع بنفسه قوانين النكاح. لقد كان أمرًا مضحكًا، ورآه الشعب بسيطًا وتافهًا، وتم وضع دستور جديد للبلاد أولى مواده «النكاح نشاط يحدد زعيم البلاد قوانينه».

قاطع رشاد بو علي ساخرًا:

- هل أنت وزير سابق حقًّا؟

- هل تشك فيما قلته لك قبل أن أشرب القهوة؟

- لا. إن شكلك يقول إنك بالفعل من بلاد الشمال، وكذلك لكنتك، لكن هذا كلام خرف.. أنا لا أصدق أبدًا أنك أتيت معي لتهرف بهذا الكلام!

ابتسم الرجل، وقال:

- لو تجمَّلتَ قليلًا بالصبر. أرجوك. لقد ظنَّ الشعب في البداية أن الحاكم وهو يطلب أن يكون النكاح في يده رجل فحل، يريد أن يحقق فحولته في الناس، ولما كان الناس كثيرون جدًّا، توقعوا أنه لن يستمر، قد يزهق أو يموت، أو أن الأمر كله نكتة، ومن ثَم فإن هذه المادة الدستورية ستكون مثل كثير من المواد المعطَّلة، لكن ما إن أقرَّ الشعب الدستور حتى أفصح الحاكم عن مراده، فجعل البيوت كلها موصلة بشبكة اتصالات رهيبة، وكاميرات سحرية

مثبتة في جميع الغرف، بحيث لا يجامع رجل زوجته أو حتى عشيقته إلا وعين الحاكم فوقهما، ولا تغنج امرأة ولا يتهتك رجل إلا وأُذن الحاكم فوقهما. لا تحسبني مجنونًا، انتظر فإن ما تراه هزلًا صار هو الجدّ بعينه، إذ إنه فجأةً أمر الرجال أن ينكحوا زوجاتهم في صمت، فهو لا يحب أصوات الرجال. لا بُد أنك الآن بدأت تنشغل عن حديثي بذهنك في شيء آخر، وستعطيني بعض الوقت حتى أنتهي وأمضي، ليكن، لكن القصة لا بُد أن تتمَّ، وعند نهايتها افعل بي ما تشاء.

- أكمل..

قال في استسلام، وبدا عليه شيء من الملل، فأسرع الرجل في الكلام..

- صار الرجال ينكحون نساءهم بلا نفس، يقفزون فوقهنَّ بسرعة، وينزلون عنهنَّ بسرعة، وينامون بسرعة، فقرر الحاكم أن يقتل كل من ينتهي قبل نصف ساعة من الإيلاج. هل تعرف كم قتلَ؟ قتل رُبع سكَّان البلاد من الرجال، وكلما ازداد القتلى ازداد الخوف، وكلما ازداد الخوف تسارع القذف، وكان رجال الحاكم يضحكون كلما تدحرجت رأس رجل ثبت أنه يُنهي نكاحَه بسرعة، فتباطأ الناس، وصار الرجال ينامون فوق أزواجهن، وكره الجميع المعاشرة وابتعدوا عنها فصارت بلادنا جافة، مات فيها الزرع ونفقت فيها الحيوانات ونشفت جلود النساء وتشققت، وذبُل الرجال. بلادنا الخضراء غزيرة المطر والمياه. كل شيء في بلادنا تصحَّر الآن.

اختنق الرجل وانتحب بلا صوت ووقف مادًّا يده يصافحه، متهيِّئًا للانصراف.

- لماذا لا تكمل حكايتك؟

- أنت لا تستمع إليَّ. لم تعُد سالم سليمان الذي قرأناه. سأبحث عن مسجد أمضي فيه بقية عمري. لقد ضعت وضاعت منّي البلاد.

وانصرف بينما راشد يجلس في دهشة من هذا الذي كان يصرُّ أن يحكي له حكايته، كيف قرر فجأةً الانقطاع عن الكلام. ورأى فرح في ركن الصالة ينظر إليه ويهز كتفه، فاردًا ذراعيه، مُبديًا بدوره عدم الفهم ثم أسرع خارجًا من الباب

.....

أتى بزجاجة الويسكي. صبَّ كأسًا وأخرج الكراسة التي بها تليفونات البنات وعناوينهن. لم تأتِ الفتاة التي حصلت منه على المائة جنيه. اكتفت بها عن العمل معه. لم ينتبه إلى أنه بالليل، اتصل بأول فتاة...

- آلو. أريد الآنسة غادة من فضلك؟

- أي غادة؟ لدينا ثلاث غادات، واحدة شاذة والثانية طبيعية والثالثة تحب فقط الكلام!

لقد اتصل ببيت دعارة فيما يبدو! طلب الرقم التالي.

- هل ممكن التحدث مع الآنسة مروة؟

- آسف. عندها ميعاد مع زبون في الشيراتون. ممكن

تطلبها بعد ساعة.

ما هي حكاية بيوت الدعارة اليوم. أيكون يهذي؟ أيكون هذا كله بسبب عدم إنصاته باهتمام لبو علي؟ التالتة تابتة يا أولاد الكلب. طلب الرقم الثالث.

- من فضلك أريد الآنسة نور.

- خلاص ضلّمت. البوليس قبض عليها. عندها إيدز. تقدر تشوفها في المستشفى الأمريكي...

ترك السمَّاعة تسقط من يده وقام يمشي خارجًا من المكتب. في الشارع تدفَّقت فيه القوة التي جعلته يمشي بلا قدرة على التوقف. صار صوت ضاحك بين السماء والأرض يسري أمامَه. إنه صوت فرح المميز لا يخطئه، رأى الناس تتدفَّق في جلابيب بيضاء ولحى طويلة يُسرعون ولا يبدو الواحد منهم مُدركًا لوجود الآخرين، ثم ابتلعتهم أزقة لم يفطن لوجودها من قبل، سرعان ما انغلقت بأبواب حديدية عالية، أبواب قلاع قديمة.

تلفَّت خلفه ليرى العمارة التي استأجر فيها مكتبه، يعرف أنه لم يبتعد كثيرًا، فكيف تغير المكان على هذا النحو، ورأى العمارة في مكانها، هو إذًا لم يفقد عقله بعد، لكنه لا يستطيع العودة، فصوت فرح صار جميلًا يشده بقوة، ولما وضع يديه على أذنيه ازداد الصوت، سكن أذنيه تمامًا، والقوة التي تدفَّقت فيه ليمشي بلا انقطاع ازدادت الآن فصار يجري، وعبر شريط سكة حديد ظهر فجأةً أمامه، وراح يخوض بين بيوت واطئة ونفايات وجثث حيوانات

اختلطت بها بعد قليل جثث رجال وأطفال ونساء تُركت كثيرًا في الشمس والرطوبة فتفجرت بطونها وحطَّت عليها أسراب الذباب. كيف يرى ذلك كله والوقت ليل ولا أضواء من أيّ ناحية، يا إلهي! إنه النور ينسكب من السماء. إنه النهار قد أسرع بالحضور، ثم انتهى كل شيء إلى خلاء. صحراء، وليل ونجوم تنتشر في السماء، وقمر بدر. كيف ظهر النهار وكيف اختفى. هل حقًّا انشق الليل عن النهار ولو للحظةٍ أم هو النهار الذي انشق عن الليل الآن! كم مضى من الوقت منذ التقى بالرجل الغريب، بو علي؟ هل كان لعنة تلبس ثوب البشر؟ الأفضل أن يستريح، إنه مُتعَب بحقٍّ.

جذبته الرمال الطرية فجلس، تمدد واستراح إلى برودتها. أغمض عينيه وأغفى، ما أجمل النوم حين يكون سهلًا! يمكن الآن لكلب ضال أن ينهشني، ويمكن الآن لذئب جائع أن يأكلني لكنه نام. هذا مكان رائع جدير أن يحلم فيه الإنسان...

.....

لم يكن حلمًا أيها الكاتب. سأتدخل أنا الآن وأنقذك. لا يمكن أن تكون على كل هذه الدراية بما يحدث، ثم إنني لا أحب لك أن تكذب. وأيضًا لماذا لا تتركني أكتب نفسي؟ ما الفرق بيني وبينك؟ كلانا كاتب. ثم إنني لا أحبك منذ رأيتك مع سالم، هل تذكر؟ كنت أنا أقرأ لكما ما كتبتُ، وأنتما تتحدثان عن امرأة تشاركتما في نكاحها في وقت واحد!

لـم يأتـني حُلـم واحـد في هـذا المـكان الـذي تـراه جديـرًا بتدفُّـق الأحـلام. جـاءني جَمَـلٌ فوقَه جَمَّـال حملني فـوق الجَمَل! أنزلـني أمـام بوابـة سـور مـن سـلك شـائك، تشـتعل فيـه النـار بـلا انطفـاء. «ادخـل مـن هنـا بسـلام»، قـال الجنـدي الأحمـر الـذي كان أيضًـا مشـتعلًا بالنـار مثـل الأسـلاك. «اخـتر شـيئًا واحـدًا تتفـرج عليـه» قلـتُ: اخـتر لي أنـت أيهـا الرجـل المشـتعل فأنـا غريـب. قـال: جنيـت عـلى نفسـك يـا غريـب. فكَّـرت أن أتراجـع وأختـار بنفسـي، ضـاع صـوتي في حلقـي، ورأيـت فـرح فـوق رأس الجنـدي المشـتعل يضحـك وهـو غـارق في المـاء، فمشـيت والخـوف يأخـذ بيـدي!

رجـل أسـود شـديد السَّـواد عـلى سيخ حديـديّ، وهـو لا يـني يلـوِّح بيديـه مـن الألـم، بينمـا اثنـان مـن الزبانيـة الضِّخـام يُمسـكان بالسـيخ مـن الناحيتـين ويشـويان الرجـل عـلى النـار، يـنزّ جلـدُه شـحمًا فـيزداد اشـتعال النـار تحتـه، وكلمـا بـدا أن الجلـد قـد زال والشـحم أيضًـا وأوشـكت النـار تطـول العظـام عـاد الشَّـحم إلى مكانـه!

وعـاد الجلـد وعـاد الـصراخ وعـاد الألـم! ولمـا كاد يُغـشى عـليَّ وقـف فـرح اللعـين أمامـي بابتهـاجٍ طفـوليٍّ مُدهـش مما أشـاع في روحـي البهجـة. أجـل. البهجـة نفسـها فمشـيتُ لأرى رجـلًا آخـر، أحمـر هـذه المـرة، يرتـدي نظـارة مـن حديـد مشـتعل ومربـوط إلى حائـط مشـتعل. عرفتـه عـلى الفـور، فشـغلتني معرفتـه عـن تعذيبـه. هـو الـذي يحـب أن يـأتي بزوجـات المعارضـين فيأمـر أن يُضربـنَ بالنعـال حـتى المـوت، وسـعيدات الحـظ منهـن يُطلـق عليهـنَّ الجنـود والضبـاط المصابـون بالسـيدا، ورأفـةً

بغير المعارضين يُطلق على زوجاتهم الضباط والجنود المصابين بالإيدز!

ولما قال له أحد معاونيه أن السيدا هي الإيدز ولكن باللغة الفرنسية أطلق عليه الجنود المصابين بالاثنين. وهكذا فرَّ الجميع إلى البلاد المجاورة، التي لم يكن حظها بأحسن من حظ بلدهم فضاع أكثرهم بين الحدود. يا إلهي! لم أعُد قادرًا على التحمُّل، ولم تعُد ضحكات فرح الطفولية تغريني بالتقدُّم، لكن ضحكةً جبارةً هزَّت الهواء الراكد، فنظرتُ يميني حيث مصدر الضحكة فرأيت الرجل، الذي اعتبر نفسه الأول والآخر، البداية والنهاية، مشبوحًا على حائط قصير، مشدودًا عليه، يرتخي نصفه العلويُّ أمامي! ويبدِّل بذراعيه في الهواء وهو لا ينقطع عن الضحك والابتهاج.

أخذني فرح الذي قفز إلى جواري من يدي، وجرينا لنستدير ونرى نصف الرجل الخلفي خلف الحائط. وجدت طابورًا من القرود الحمراء والخضراء والزرقاء الصغيرة تقف طابورًا وتعمل فيه على التوالي، وكلما بدا أنه أوشك على الموت توقفت القرود حتى تعود إليه عافيته، فتعود تعمل فيه من جديد، وكانت رائحة نتنة تملأ الفضاء تُطلقها القرود. هكذا أدركت فصرختُ وجريتُ إلى رائحة الماء، وكان هناك نهر يُرسل هذه الرائحة، إلا أن خراطيم رفيعة كانت تخرج منه، عشرات الخراطيم، كلها مُوصّلة بطلمبات في الماء وتنتهي على الشاطئ إلى أفواه عدد كبير من الرجال النائمين، وتخرج مرةً أخرى من أدبارهم لتعود

وتـنزل إلى النهـر. جـاءني صـوت عريـض يقـول: لا تجـزع هـؤلاء هـم الذيـن تحدثـوا كثيرًا عـن المـاء والـزرع والنمـاء ثـم جففـوا ينابيـع الميـاه في الجبـال حـتى لا يجـد الثـوار ملاجـئ لهـم، وهـؤلاء هـم الذيـن أحرقـوا الـزرع في الأرض والأشـجار حـتى لا يختبئ مـن الثـوار أحـد. كان أكثرهـم انتفاخًـا بالمـاء يتوسـطهم فتقدمـت إليـه، وهتـف فـرح: «الرجـل الأوحـد» وصفـق بيديـه. وتذكـرت كيـف كان الرجـل يأمـر أن يـؤتى إليـه كل ليلـة بفتـاة بكـر، فلمـا انتهـت الفتيـات الأبكار أمـر الأطبـاء بترقيـع الفتيـات بأغشـية بـكارة تستنسـخها شركـة دواء سـويسرية بأسـعار خرافية، وطلـب أن يكـون الاستنسـاخ مـن ملكـة جمـال أوكرانيـا. لمـاذا أوكرانيـا؟ قـال لأن الفتيـات هنـاك لهـن جلـود أرق مـن الشَّـمع، مـن النسـيم الخريفـي، مـن مـاء نبـع وسـط الجبـال. والحقيقـة كانـت أن أوكرانيـا هـي البلـد الوحيـد الـذي زاره. كان مكروهًـا في كل الدنيـا ويخـاف الاغتيـال.

فجـأة رأيـت شـابًّا يـأتي مهـرولًا حامـلًا كتابًـا هـو ديـوان شِـعر ويجلـس عنـد رأس الرجـل يتلـو بسرعـةٍ منـه فصـار المسـكين يتألـم مـن ضغـط المـاء عـلى بطنـه ووزن الشِّـعر عـلى رأسـه، وتأسـفت لأنـه كان شـاعرًا في الحقيقـة يملأ شـعره سـاعات البـث التليفزيـوني والراديـو. وهـرول شـاب آخـر قادمًـا يحمـل كتـب شِـعر كثـيرة كلهـا سـبق وأن ألَّفهـا الرجـل الـذي صرخ «ابعـدوا عـنِّي الشِّـعر وخلـوا المـاء» وعـلا صـوت بكائـه فأبـكاني، ولمـا خِفـت أن يشـدَّهم بـكائي بعيـدًا عـن بكائـه فيخلطـوا بيـني وبينـه وأحـلّ مكانـه ويحـلّ مـكاني، وتذكـرت مـا جـرى لي إذ أحمـل صـوت سـالم والنـاس تـراني سـالم رغـم أني أحمـل وجـه راشـد،

جريت ورأسي يكاد ينفجر لأني فكرت أن أرى المأمور والضابط آكل العصافير هنا فيعرفاني. خفت فجأةً أن يكونا هُما حرَّاس المكان. والصوت الذي كان منذ قليل يشدني إلى الأمام عاد يشدني إلى الخلف، وتقافز حولي فرح يضحك عليَّ من خوفي هو الذي يحمل وجه سالم الجميل فعادت إليَّ شجاعتي ومشيت ناحية الباب الذي سبق أن دخلت منه. وقررت أن أخرج قاتلًا أو مقتولًا من هذا الجحيم.

لم يخرج. فقط أرجأ بقية الجحيم. لقد اشتد عوده في الكتابة، ولا يفاجئني خبثه. لقد تلبَّسته رُوح سالم سليمان، ولم يكن سالم بالكاتب السهل. رحمة الله على الجميع!

عاد إلى بيته يرتجف، رغم أن شيئًا من بهجة الكتابة كان يخالسه، إذ أظهر أشياء وأخفى أشياء، وإذ تعلم الشفقة بالقارئ، وإذ تذاكى في إقامة المعمار! وفي الشارع المُفضي إلى البيت تاقت نفسه لرؤية الرجال ذوي اللحى والجلابيب البيضاء الذين أُغلِقَت عليهم الأزقة. لا بُد أنهم يذهبون إلى الصلاة، ولن يضيره أن يذهب معهم. هذه المعاصي التي يرتكبها مع النساء ما كان عليه أن يرتكبها. ما رآه الليلة الماضية يدفعه إلى البكاء، وليس أطهر للنفس من البكاء بين يدي الله. إذا لم تكن هناك شفاعة لأولئك الرجال فمن يشفع له هو الذي لا يشعر أحد بوجوده، وتناهى إليه صوت أم كلثوم من الفضاء، تائب تهمى دموعي ندمًا، سيغسل ذنوبه بالدمع الحار، وسيحب أعداءه، وسيرضى

بما قسم الله له، ضياع أسرته قضاء وقدر، وضياع فلوسه حكمة إلهيَّة، وحرَّاس قسم الشرطة قدّيسون ونبلاء، والمجرمون يتعذبون في الدنيا لتخف كفَّة ذنوبهم في الآخرة، ولما لم يجد الرجال البيض اغتمَّ، لكنه قرر أن يبحث عن مسجد قريب، فما أكثر المساجد في البلاد! وفي فعل كوني لا يحدث إلا للمصطفين انزاحت كل البنايات من حوله، خاف من العودة إلى الصحراء، وإلى الليل، لكنه رأى بناءً قديمًا جدرانه من حجر ضخم قديم حائل، جامع أثريّ ولا شيء آخر، كيف قام الجامع فجأةً أمامَه وكيف أنه قديم أيضًا! لا يهم. المهم أن لا يعود إلى الوراء، لا يدخل الجامع فيجد نفسه في عصر آخر. لو حدث ذلك يتأكد أنه صار مجنونًا حقيقيًّا، ثم إنه لا يحب أن يُعيد الروايات القديمة، والذين يريدون فهم الحاضر بالعودة إلى الماضي في رواياتهم عاجزون عن تقديم روايات حقيقية. دخل المسجد على أطراف أصابعه. هل هو حقًّا مسجد؟ لم يتأكد بعد. على الأرض حُصُر قديمة بائسة ممزقة، وفي المواجهة منبر خشبيّ قديم أيضًا، يتقدم نحو المنبر ليتأكد من وجوده. هو اليوم وسط الخيال العظيم، ولاحظ فوق الجدران شِباك عنكبوت، ولما وطأ الدرجة الخشبية الأولى للمنبر تهاوت تحت قدمه. تفتتت. حاول أن يصعد الدرجة الثانية فتهاوت وتفتتت أيضًا، لمس الدرابزين فانسحق تمامًا تحت أصابعه. تهاوى المنبر كله وصار رمادًا أسود. ولما كانت فوقه مئذنة تطلَّع إليها فرآها تغادر مكانها وتصعد إلى السماء. كانت طيور تأتي من كل ناحية ترفعها على ظهورها وتمضي

صاعدةً. لا فائدة. ليس أمامه من طريق مفتوح إلا العصيان. رجل تفر المساجد منه ليس له باب للتوبة، هو المسكين الذي لم يرتكب آثامًا تساوي شيئًا قياسًا بمن عرفهم في حياته، أيّ قوة جبَّارة يحتاجها ليعيش، وهل لو تأكد للناس أنه لم يقتل سالم سليمان ستتغير أحواله؟ لكن لا بُد أن هذا العقاب الإلهيّ الكبير على ذنوبه الصغيرة، لأن الله يحبه ولا يريده أن يستمر سادرًا في الخطيئة. الذين يكرههم الله يترك لهم حبل الدنيا المجدول من الغوايات. هو إذًا قدِّيس، أو مشروع قدِّيس، وأكثر من ذلك، مظلوم ومُهان. وما جرى له الآن إشارة كي يعود إلى الطريق الصحيح..

مشى مطأطئ الرأس يلفُّه الحزن. وفكَّر لحظةً أنه لن يصل إلى بيته أبدًا، لكنه رأى كيف لم يبتعد كثيرًا عن البيت. دخل من الباب إلى الطرقة المظلمة، فسمع صوت غلام يصرخ ويشتم، يا بن الكلب يا وسخ، وفي بئر السلم رأى رجلًا ضخمًا يبرك بقوة فوق الغلام الذي يحاول باستماتة أن ينعتق من تحته. لم يكن ظاهرًا من الغلام غير ذراعيه يتحركان في الفضاء. قبل أن ينقض على الرجل كالمجنون أدرك أن الصوت الذي سمعه هو صوت فرح. فرح هو الذي تحت الرجل، لا يمكن أن يكون فرح هو الرجل، ورفع الرجل إلى أعلى وأطبق على عنقه. كاد بالفعل يقتله إذ سمع حشرجةً في حلقه، لكن داهمته رائحة كريهة تخرج من فم الرجل فتركه. جرى الرجل من الباب بسرعة، ورأى فرح يتكوَّم مرعوبًا يحاول أن يستر جسده بيديه. فرح. فرح. تعال يا فرح. أنت طفل حقيقي إذًا. لستَ خيالًا يحمل وجه

سالم وتطاردني إذًا. إنك لا تظهر لي وحدي، بل تظهر للناس أيضًا. أنت لستَ كذبة إذًا! لكن ما الذي يمنع حقًّا أن يكون هذا غلامًا آخر تلبسته رُوح فرح وشكله. غلامًا سبق له أن قتله فرح أو قتل هو فرح. تعال يا فرح. تعال. لكن فرح جرى من أمامه مغادرًا المكان. صعد هو إلى مكتبه مذهولًا. ما إن فتح الباب حتى سمع صوت ضحكاتٍ تأتي من الغرفة الداخلية. لو كان الرجل الشمالي سأقتله. ولا يهمني حتى أن اسمه بو علي. مثل هذا النوع يقابلك فجأةً في الطريق ليقلب لك حياتك. لكن الصوت أنثويّ! تعال. سمع نداءها. إنها الفتاة الرقيقة التي أحبَّت أن تعمل مومسًا مع السيَّاح العرب أتت اليوم. كانت عاريةً، وكانت تضحك. ولما اقترب منها مدَّت يدها تشدّه من بين فخذيه.

- دعيني ليس بي رغبة اليوم.

وانتبه فجأةً:

- كيف دخلتِ إلى هنا؟

ضحكتْ...

- فرح هو الذي أدخلني.

- فرح. كيف عرفتيه؟

- وهل تظن أنه يخصك وحدك!

وقبل أن تصل به الدهشة إلى غايتها أردفت:

- إنه لطيف جدًّا. يصحبني إلى السيَّاح العرب الذين

تُخفيهـم عـني.

وسـمع ضحـكات رفيعـة في الصالـة خلفَـه. لقـد عـاد فـرح ووقـف عاريًـا. لاحـظ أن لـه ذكـرًا كبـيرًا لا يتناسـب مـع حجمـه. اقـترب فـرح منـه وأزاحـه بيـده مـن سـاقه وقـال.

- دعني أنا أعمل بدلًا منك اليوم.

ورأى الفتاة مبتهجة جدًّا وهي تنظر إلى فرح.

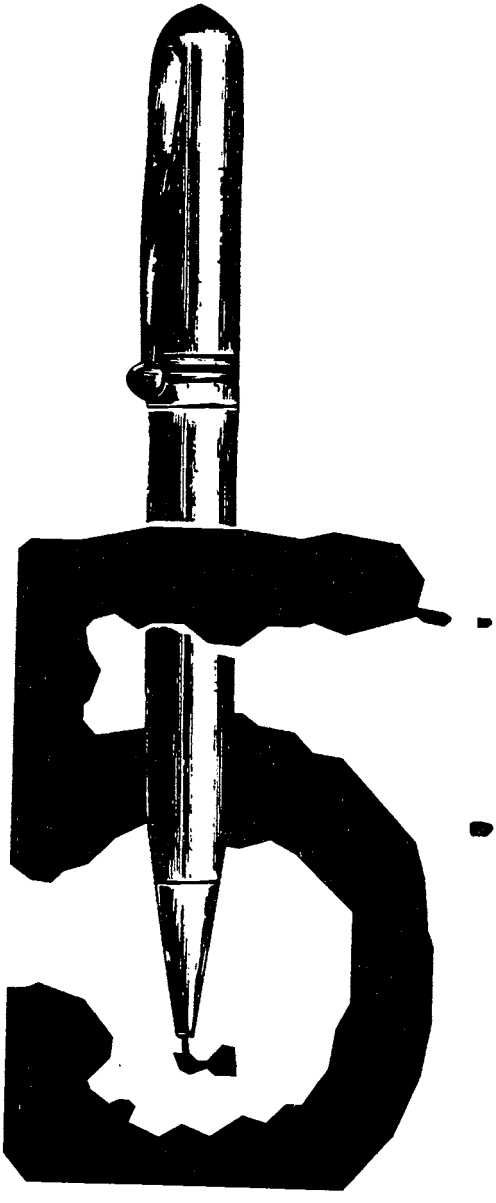

- آلو

- آلو

- Parlez-vous français?

- Non

- Ah; then you speak English ?

- No.

- أو هو هو هو. إذًا أنت تتكلم العربية فقط؟

- أرجوك قل لي ماذا تريد لأني مزدحم جدًّا.

- مزدحم! هئ هئ هئ. هل أنت باص عمومي؟

- أشكرك على أدبك. مزدحم أعني مشغول. على السرير امرأة ملتهبة، وأوراقي كلها مبعثرة على الأرض، والأدراج مفتوحة.. هل رأيت زحامًا أكثر من ذلك؟

أدرك فجأةً والآخر يضحك على الناحية الأخرى من الخط أنه لا يعرفه، وما كان له أن يسترسل معه في الحديث هكذا. سأله:

- قل لي لو سمحت من أنت؟

- أنا... أنا جانيت.

ارتبك...

- فتاة حضرتك؟

- طبعًا. هل ترى شيئًا آخر؟

- صوتك خشن جدًّا.

- أشكرك بدوري على أدبك.

- معذرةً. لقد تركتِني أحدِّثكِ كرجل. شديد اعتذاري. والآن ماذا تريدين يا آنسة جانيت؟

- حضرتك مدعو لحضور الحفل السنوي لسفارتنا بمناسبة رحيل مسئولة القسم الإعلامي. أنت تعرفها. مدام تيريزا..

- مدام تيريزا؟!

تساءلَ وهو يفكِّر...

- أجل. إنها صديقتك من زمان.

- طيب. طيب. كيف عرفتم عنواني الجديد وتليفوني؟

- يـا أسـتاذ سـالم خـبر عودتـك يمـلأ البـلاد. وعنوانـك وتليفونـك تنشرهمـا الصحـف كل يـوم. الصحـف تتبـارى في حـثّ النـاس عـلى إرسـال مشـاكلهم إليـك وتدعـوك للعـودة إلى تحريـر بابـك الصحفـيّ الشـهير «قلـبي معـك وعقـلي عليـك».

سـكتَ لحظـاتٍ. تمتـمَ. «وداد» بنـت الكلـب لا تـزال تنـشر الأخبـار!

سألته:

-هل تقول شيئًا؟

- لا..

لكنـه اكتشـف أن جانيـت أغلقـت الخـط مـن قبـل، وأن الـتي تسـأله هـي الفتـاة الملتهبـة عـلى السريـر في الغرفـة الداخليـة.

كانـت قـد نهضـت مـن نومهـا وبـدأت تلبـس ملابسـها عـلى مهـل. جـرى إلى الكيلـوت الـذي بـين يديهـا قبـل أن تُدخـل قدميهـا فيـه وخطفـه منهـا. ابتسـمت:

- غريـب أمـرك. هـذا هـو الكيلـوت العـاشر الـذي تأخـذه مـني!

ابتسم... قال:

- هـذا يعـني أنـك أمتعتِـني أكـثر ممـا كنـت أتوقـع. لـم آخـذ غـير كيلـوت واحـد مـن كل بنـت قبلـك.

سـكتت متحـيرةً. هـزَّت رأسـها وهـي تدخـل البنطلـون في

وسطها. فوقه ارتدت القميص والجاكيت القصير.

- هل آتي غدًا؟

- كلميني بالتليفون. سأخبرك ما إذا كنت أحتاجك أم لا.

قبَّلته وخرجتْ...

وجد نفسه وحده فانكبَّ جالسًا على الأرض بين الأوراق المبعثرة والأدراج المفتوحة للمكتب الخشبي وراح يقلِّب فيها مثل مجنون.

.....

الذي كتبه سالم من قبل عن تيريزا لم ينشره. هكذا أخبره وهما يمشيان بين ثنيات وتلال الجبل. هذه الأوراق التي يبحث فيها أوراقه هو وليست أوراق سالم، لكنه لم يكتب كثيرًا هكذا. هل تكون هي أوراق سالم انتقلت إليه يومًا ما! هو يعرف تيريزا جيدًا. هل عرفها قبل سالم؟ بعد سالم؟ كانا يتحدثان عنها معًا، يكرران الجمل نفسها، القصة نفسها. من سمع القصة من الآخر في البداية؟ من تلبَّسته القصة في النهاية؟ مؤكَّد أن سالم كان دائمًا يخدعه، كان يحوِّل كل حكاياته التي يرويها له إلى قصص يصبح، هو سالم، مؤلفها. لكنه لم يدخل غرفة سالم في الفندق بعد اختفائه. إذًا هو لم يأخذ منه ورقة واحدة، لكنه عاد بورق كثير من البلدة الصحراوية فهل دخل غرفته ولا يدرى الآن!

استراح إلى الجدار بعد أن يئس من العثور على شيء مفيد.. تيريزا تيريزا. هل لا تزال تحتفظ بقوام سالومي؟ ريتا

هيـوارث الجميلـة ماتـت مجنونـة بالزهايمـر. القـوام الفـارع والخـصر الدقيـق لتيريـزا، لسـالومي، لريتـا عينـان مـن الغوايـة وشـفتان مـن الشـهوة. تيريـزا كانـت تتكلـم العربيـة أحسـن مـن أهلهـا لكـن أحبهـا وهـي تتكلـم الفرنسـية والإنجليزيـة والألمانية. إنهـا تتكلـم الألمانيـة برِقَّـة. كيـف صـارت ألمانيـا يومًـا مـا بلـدًا نازيًّـا؟ تيريـزا رقيقـة لكنهـا كثيـرًا مـا وضعـت السـدود أمامـي. تدعـوني لبيتهـا ثـم تقـدِّم لي رجـلًا ضخمًـا وتقـول «زوجـي». يذهـب الرجـل لينـام مبكـرًا وتبتسـم وتقـول عنـه أنـه طفـل شرب اللـبن وذهـب إلى سريـره. صورتـه الضخمـة تظـل أمامـي. تمـضي بقيـة السـهرة تضحـك تيريـزا وصـورة الرجـل الضخـم أمامـي. تقـول لي: «انظـر كيـف امتـلأت أركان البيت كلهـا بالزهور، كل هـؤلاء عشَّـاقي». وترقـص تيريـزا بـين الزهـور وتقبِّلـني فتقفـز صـورة الرجـل الضخـم أمامـي. كيـف ينـام كل هـؤلاء العشَّـاق مـع تيريـزا؟ ألا تقفـز أمامهـم صـورة الرجـل الضخـم؟ كيـف حقًّـا أنـام مـع تيريـزا وفي الحجـرة القريبـة ينـام الرجـل الضخم الـذي تقـف صورتـه أمامـي؟ آخـر مـرة زرت فيهـا تيريـزا كانـت معهـا الممثلـة غـير المشـهورة الـتي كانـت تأتيـني أخبارهـا في الصحـف وأنـا خـارج البـلاد بعـد ذلـك. كانـت أخبارهـا في كل الصحـف. في الصفحـات الأولى والأخـيرة. كانـت جميلـةً جـدًّا، لكـني لـم أقتنـع بكونهـا ممثلـة في أي فيلم شـاركتْ فيه. همسـتْ لي تيريـزا في أذني: «إنهـا تنـام مـع طـوب الأرض، تسـتطيع أن تأخـذ راحتـك». وتركتنـا وذهبـت تحـضر لنـا كـؤوس الويسـكي. لـم أكـن أريـد أن آخـذ راحـتي، كنـت أريـد أن تترجـم لي تيريـزا قصـة وتنشرهـا في بلدهـا. لعلـه سـالم هـو الـذي زار تيريـزا

وقالت له أن يأخذ راحته، لكني زرتها وطلبت أن تترجم لي قصة، لعلَّنا ذهبنا معًا، قالت له شيئًا وقالت لي شيئًا. أنا أقرأ الآن ما كتبه سالم. لعله اختلط بما كتبته. رأسي سينفجر. لقد كانت الممثلة جالسة في خجل التلميذات تفرك يديها وأصابعها فمددتُ يدي وأمسكتُ بيدها فمالت بسرعة برأسها على كتفي ولامس شعرها الناعم عنقي، وشممتُ رائحة بصل! أنقذتني تيريزا وعادت بالويسكي. قالت للمثلة: «خدي بالك دا بتاع نسوان». والحقيقة كانت واضحة، أن تنشر لي تيريزا قصة باللغة الأجنبية بعد أن ضاقت عليَّ فرص النشر بالعربية...

لم يكن يقرأ ولا يكتب. تأكد له أنه يهذي وهو مرتكن إلى الحائط. رأى فرح يضحك في ركن بعيد من الصالة. كان عاريًا تمامًا. ولاحظ أن آلته صارت صغيرةً جدًّا. إنه طفل حقيقي. فرح يعرف أنني سأموت ويشمت فيَّ. لكنه لاحظ مظروفًا ينزلق إلى الصالة من تحت باب الشقة المغلق. تناوله وفتحه. وجد فيه كارت الدعوة التي حدثته عنها جانيت. بهذه السرعة يقضي الأجانب أعمالهم. وكان فرح لا يزال يضحك في الركن. هز هو رأسه ودخل الغرفة لينام، وبينما هو مُستلق على السرير رأى من خلال الباب المفتوح فرح يغادر الشقة عاريًا من بابها المغلق فأجهش في بكاء مرير..

.....

- تعالى جنبي..

أفسحت له مكانًا جوارها على المقعد، وأردفت:

- أنا عارفة أنك تريد أن تجلس إلى جواري من زمان.

وربتت على فخذه بيدها اليسرى. إنها الممثلة ذات الوجه الطفوليّ الجميل. لا ينساها.

كانت جالسة كما رآها زمان، في خجل التلميذات، فقط ازدادت سِمنةً وبان على وجهها ذُعر خفيف، ولا تهب منها رائحة البصل!

تيريزا تدور بين الضيوف مثل فراشة فرحانة، طويلة نحيلة القوام كما كانت. مؤسسة على عجُز قوي وساقين طويلتين، وثدياها نافران مثل فتاة بكر.

كأنه لم تمر عشر سنوات على تيريزا. تيريزا وحدها دون العالمين..

فرنسيون وإنجليز وألمان وأمريكان ويهود ومصريون وعرب وكُتَّاب وصحفيون ورؤساء تحرير، والجميع يقتربون من الممثلة فتعطيهم يدها يقبلونها باسِمينَ. وأقبل من الشُّرفة طفل صغير ارتبك راشد لمرآه إذ ظنه فرح، لكن الطفل له وجه آخر، ارتمى في أحضان الممثلة التي قالت «أخي الصغير» وراحت تربت على ظهره وهو دافن رأسه بين فخذيها، بينما لا تزال يدها التي ربتت بها على فخذ راشد في مكانها على فخذه. كانت الحرارة قد شملت جسده كله، وبدأت تيريزا فاصلًا من الرقص الشرقي على موسيقى يونانية. موسيقى ثيودور إكس الشهيرة في فيلم زوربا،

واشتعل الحاضرون تصفيقًا.

هدأت الموسيقى وراحت سالومي تتهاوى على مقعد قريب منها والعرق يتفصَّد على وجهها فيلمع وجهها أكثر تحت ضوء الثريا الكبيرة، وانفرد كل رجل بامرأة في جانب يتناجيان ولم يبق جالسًا غيره والممثلة التي صارت شهيرة وأخيها..

- أنا أعرف كل مكان في هذه الشقة.

قالت الممثلة، فارتبك، قال:

- أنا أيضًا أعرفها جيدًا.

أقبلت تيريزا نحوهما، وقالت:

- مكانكما محفوظ. لم يدخله أحد منذ عشر سنوات. منذ غيابك يا سالم يا حبيبي.

لا فائدة. لن يعرف أحد أنه راشد أبدًا. لن يعرف أحد بذلك. شيء ما في الكون يجعل الناس تناديه بذلك، وليس الجميع متآمرين عليه. لقد نظر في المرآة في الصباح وتأكد له أنه لا يحمل من سالم إلا صوته، إن صورته، هي صورة راشد رشاد لم تتغير، لكن لا فائدة.. ثم قالت تيريزا:

- نحن نساعدها على الخروج من البلاد.

- لقد حاولت أن أقنعك بذلك، لكنك فضلت الدولة العربية. هل نسيت؟

لم يرد...

- كانت لديك فرصة. كنتَ أصغر سنًّا. حد يسيب مصر ويروح الجبال! أوروبا يا حبيبي. أوروبا حد يرفضها؟

هز رأسه عاجزًا عن الفهم.. قالت تيريزا:

- إنها حكاية طويلة. يمكن لها أن تحكيها لك في مكانكما القديم..

ابتسم ووقف فوقفتْ الممثلة وأخوها. مشوا في طرقة طويلة أسلمتهما إلى غرفة صغيرة. كان خائفًا. ماذا سيحدث لو وجد خلف باب الغرفة بابًا خلفه باب خلفه باب إلى ما لا نهاية.. هكذا كان يشعر كلما عرف أن أحدًا ساعدته تيريزا على اللجوء السياسي. هل لا زالت تفعل ذلك! كان هو سرها ولم يكن غيره يعرف. هل كان ممكنًا أن يفعل ذلك؟ لم يكن هناك سبب يمكنه استغلاله. هل كان يمكنها أن تساعده دون أي سبب؟ كان طموحه صغيرًا جدًّا أن تساعده في ترجمة قصة قصيرة له إلى الألمانية. ماذا يحدث لو أسلمه الباب الأخير إلى الصحراء مرة أخرى، كل مرة كان يتخيل أن الباب الأخير سيسلمه إلى فضاء لا نهائيّ، إلى الجحيم الذي رآه من قبل! هذه الممثلة تريد مغادرة البلاد. إنه يشم رائحة سياسة كبيرة في المكان وهو يكره السياسة. ثم إنه غير قادر أن يرى أحدًا يتعذب مرة أخرى.

- مالك؟

سألته.. أجاب:

- لا شيء..

- أنت ترتعش!

- أبدًا. الحمد لله ليس للغرفة غير باب واحد.

ابتسمت مندهشةً..

- وهل للغرفة دائمًا أكثر من باب؟

- أحيانًا.

هـزَّت حاجبيهـا إذ لـم تفهـم مـاذا يقصـد بالضبـط. نظـرت إلى الغرفـة الـتي لـم يكـن فيهـا غـير منضـدة سـوداء بيضاويـة بـلا مقاعـد ومرايـا بلجيكيـة قديمـة وسـط أطـر خشـبية مذهبـة عـلى الجـدران وقالـت.

-كما تركناها أول مرة.

لا يذكـر أنهمـا دخلاهـا معًـا. تيريـزا تهـذي والممثلـة تهـذي أيضًـا. لكـن لا بـأس. ورنـت منـه نظـرة إلى أخيهـا فقالـت:

- لا تخشاه، إنه يحب اللعب.

وابتسـمت ابتسـامتها الطريـة المتهافتـة الـتي تـكاد تقـع بشـفتيها عـلى فـم مـن يراهـا، وقالـت:

- دائمًا كنت تأتيني مباشرةً. لم تحاول أن تراوغ مرة.

كان يعـرف أنهـا تقصـد بذلـك طريقتـه في الـكلام، وضوحـه ومباشرتـه وذهابـه إلى الهـدف بسرعـة. هكـذا كان سـالم سـليمان حقًّـا. وفي لحظـةٍ أحـسَّ أنـه لا يريـد أن يعـرف قصـة هـذه المـرأة، ولا لمـاذا تريـد مغـادرة البـلاد. أمسـكها مـن ذراعهـا وأدارهـا فاسـتدارت وهـي تقـول بهلـع خفيـف:

- «مالك. هاتعمل إيه؟ أنا ما أقصدش كده، أنا عايزاك تسمعني.. تساعدني».

لكنه كان قد أمالها فوق المنضدة ثم ضغط بهدوء على قفاها بكفه اليسرى فمالت أكثر، ولدهشته رأى أخاها كما قالت يرفع فستانها إلى ظهرها..

- شكرًا لك...

قال له مبتسمًا بينما راح الغلام «أخوها كما قالت» يشد الكيلوت عن أخته فظهرت مؤخرتها أمامه شديدة الاستدارة، خشنة قليلًا لكنها تشع ضوءًا أبيض! كانت سُفن اللذة تحمله إلى الفضاء على فرس مجنَّح تطيِّر ثيابه حوله وخلفه، وفوق رأسه مظلَّة من العصافير، لا ليست العصافير، إنه يخاف أن يظهر الضابط، لقد قفز إليه الآن. هل لأن كل من يأتي هنا يريد الهرب؟ مظلَّة من الفراشات الملوَّنة... إن ما يصعد منها ويمضي في أوردته الآن لَسُفن من الفرح المشتعل تخلعه عنها لتُعيده فيها. فِعلان متضادَّان في وقت واحد، ذهاب وغياب، ظلام حوله ونور داخله، ماء ونار!

وهي تموء وتلوي وترغي وتبربر وتشخر وأخوها «كما قالت» يقف قريبًا يضحك. وفي المرآة أمامه كانت عيناها مغلقتين لكن ينسكب منهما الدمع وتعض شفتها السفلى وتفرد ذراعيها تمسك بالمنضدة من الناحيتين وتكاد المنضدة تتزحزح، ثم فجأةً انزاحت المنضدة من مكانها فكادت تصطدم بالمرآة أمامها من أثر ضغطه عليها، ومن

أطرافـه خـرج الأذى والتعـب اللـذان في جسـده.

- مبسوط؟

قالـت وهـي لا تـزال عـلى وضعهـا، لكـن تهـدَّل شـعرها حـول رأسـها وابتـلَّ بالعـرق، وكان هـو لا يـزال فوقهـا رغـم همـوده.

- جدًّا..

- لقد نسيت القصة.

- أيّ قصة؟

- قصتي..

- أنا أيضًا نسيت!

سـكتت.. بـدا لـه أنهـا قـد ماتـت. تراجـع مذهـولًا إلى البـاب وتجـاوزه إلى الطرقـة المفضيـة إلى الصالـة. تناهـى إليـه صخبهـا وموسـيقى هادئـة. تيريـزا ترقـص في بـطء وسُـحُب دخـان السـجائر والسـيجار تمـلأ الفضـاء فـوق الـرؤوس. مـا إن رأه الجميـع حـتى توقفـوا وراحـوا يضحكـون ويشـيرون إلى بنطلونـه. انتبهـت تيريـزا وضحكـت بقـوة. كان البنطلـون نازلًا حـتى قدميه، اقتربـت تيريـزا منـه وانحنـت ترفـع لـه البنطلـون وتغلـق أزراره. امتـدت لـه يـد بمنديـل ورقيّ كبـير. كانـت يـد الممثلـة. تنـاول منهـا المنديـل غـير مصـدِّق، ورأى أخاهـا لا يـزال واقفًـا وجهـه الـبريء بـين فخذيهـا وهـي تربـت عـلى ظهـره بيدهـا اليـسرى. إنهـا لـم تـبرح مكانهـا بعـدُ فمـع مَـن كان بالغرفـة!

- اقعد هنا جنبي حتى أحكي لك قصتي. لا تهرب منّي.

جلس كالمسحور. ودون أن يقصد نظر ناحية باب الصالة فرأى الممثلة تمر من أمامه في طريقها إلى باب الشقة الخارجيّ الذي فتحه لها فرح ووقف جواره منتظرًا خروجها ويضحك..

- هل تسمعني أم أرسلها إليك في خطاب؟

سكت قليلًا وقد وضع رأسه بين يديه يفكر من هو بالضبط ومَن كل من يراهم! ثم قال يائسًا:

- تعالي مرة إلى البار. برج العذراء. هناك تكتمل القصص.

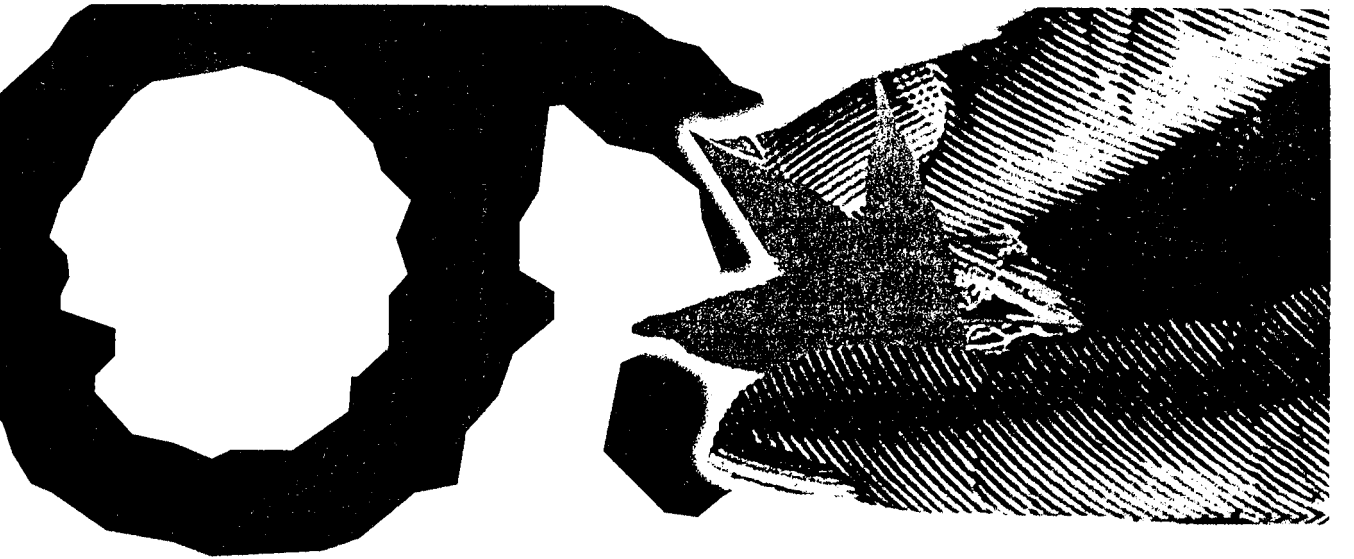

- 6 -

لماذا كلما استقلَّ تاكسيًا وجده يتحرك بلا سائق! مسح جبهته بيده اليسرى. فكَّر أنه قد آن الأوان أن يركب سيارته. ليس معقولًا أن يخشى ركوبها كل هذا الوقت.. لكنه سمع صوت السائق:

- إلى أين يا أستاذ؟

عاد رأس السائق إلى جسده إذًا. بل ها هو السائق يبتسم. لكنه لا يرى قدميه. لا يرى نصفه الأسفل، الأفضل أن ينظر إلى الشارع.

- إلى الميدان الكبير..

كان المطر قد انقطع منذ قليل. الشوارع خالية. لقد استمر المطر ينسكب على الدنيا سبعة أيام كاملة لم يغادر فيها مكتبه. لم تأت بنت من البنات. لم تأته وداد، لم تتصل به أيضًا بالتليفون. لعلها سافرت إلى مكان ما. لعلها نسيته. فجأة داس السائق على الفرامل بشدة فتوقف

التاكسي منزلقًا بعد أن كاد يدور حول نفسه دورة كاملة. لم تكن هناك إشارة مرور. وقبل أن يسأل السائق لماذا توقف على هذا النحو رأى طابورًا من الأيور الصغيرة يعبر الشارع!

- ما هذا؟

تساءل في جزع. أجاب السائق وهو يضحك:

- ألا تعيش معنا يا أستاذ؟ ألم ترَ ذلك من قبل؟

سكت. انتهى عبور الأيور ورآها تأخذ طريقها إلى الرصيف المحاذي للنهر، ثم رآها تنزل وتختفي باتجاه الماء. واستمر التاكسي في طريقه، وهو لا يصدق. شمله الصمت وشمل السائق أيضًا، ولم يعد لحركة التاكسي صوت... وسكن الكون كله.

- أنزلني هنا.

قال وهو يقدِّم للسائق ورقة مالية فئة الخمس جنيهات. ابتسم السائق وقال:

- حمدًا لله على السلامة يا سالم بك. نوّرت البلد. قريبًا سأزورك في الجورنال. عندي مشكلة كبيرة جدًّا إذا نشرتها سوف تهزّ البلد.

ثم ابتسم للسائق الذي استمر يتكلم..

- منذ عودتك وأنا أتابع مقالاتك. البلد بدون «قلبي معك وعقلي عليك» كانت فقيرة جدًّا.

وتحرك السائق بالتاكسي، دون أن يتقاضى منه شيئًا. تجمَّد

راشد في مكانه لحظاتٍ. عاد الباب الصحفي للظهور إذًا، ها هو السائق يؤكد ذلك. من الذي يحرر الباب عوضًا عنه ويضع توقيعه عليه؟ لا بُد أن هذا البلد امتلأ بالمجانين. الجميع فيما يبدو ينتقمون منه وهو مسكين لن يستطيع أن ينتقم من أحد.

البارات هي أحسن مكان للدفء في الشتاء، والبيوت السعيدة أيضًا. قال لنفسه ذلك وهو يدفع باب البار ويدخل. قابله دفء حقيقيّ ورأى سُحب الدخان فوق رؤوس الجالسين. في الركن البعيد كانت وداد تجلس بين ثلاثة أشخاص، ما إن رأته حتى وقفت وصرخت:

- سالم سليمان. تعال. تعال... كلنا في انتظارك يا أستاذ..

ابتسم. كان صاحب الشيء جالسًا بعيدًا عنهم كعادته، وكان شيؤه يمتد إليهم ويحتل طرفُه مكانًا على المنضدة أمامهم.

- إمسك انت.

قالت وداد وهي تناول الشيء للرجل الذي ظهره إليه.

ما إن جلس حتى كاد يقف في فزع.

- اجلس يا أستاذ سالم. لا تندهش.

قال ذلك الرجل ذو الوجه الأحمر واللكنة الشمالية، إنه بو علي الذي قابله من قبل، ثم أضاف الرجل:

- لقد ذهبت إلى كثير من البارات وذهبت إلى مكتبك أكثر من مرة فكان مغلقًا دائمًا. دعني أقدِّم إليك السيد الزعيم.

وأشار إلى الرجل الذي أسلمته وداد الشيء من قبل، والذي بدوره انشغل بصبّ البيرة في فم الشيء، لكنه بدا حزينًا بحقّ.

نظر سالم إلى بقية الجالسين في البار، ناس لم يرهم من قبل، مشغولين في الأحاديث، حتى إنهم لا يرون ما يحدث أمامهم، أو يرونه ولا يهتمون. ثم نظر إلى البارمان الأسود الضخم فوجده يبتسم ويغمز له بطرف عينه.

قالت وداد:

- لدينا اليوم مشكلة. الوزير بو علي والزعيم ينتظرانك، وأسعد سعيد أيضًا ينتظرك. الوزير يريد أن يكمل لك حكايته التي لم تُعطه الفرصة لإكمالها حين صحبته إلى بيتك، وأسعد سعيد يريد أن يُطلعك على معالجته لقصة حياة صديقنا صاحب الشيء.

كان راشد يفكر في الرجل الحزين الذي يمسك بالشيء والذي يقولون أنه الزعيم. لم تكن على وجهه أي علامة للقسوة. وفطن إلى أن أسعد سعيد هو الشخص الثالث الذي يجلس مع الفتاة. كيف حقًّا كاد ينساه! وجاءهم صوت صاحب الشيء:

- أنا غير راضٍ عن معالجة الأستاذ أسعد سعيد لقصة حياتي يا سالم بك. أريدك أنت أن تكتبها.

وقذف الزعيم بالشيء إلى الأرض ونظر إلى صاحبه وقال في ضيق:

- يا أخي الله يرضى عليك خذ هذا بعيدًا عنَّا. إنه يزاحمنا ويقلقنا ونحن نريد أن نتحدث مع الأستاذ.

بدأ صاحب الشيء يبتسم والشيء يتراجع منسحبًا. ثم نظر الزعيم إلى الوزير وسأله:

- هل هذا هو سالم سليمان حقًّا؟

- طبعًا. ألا تذكر صوره في الصُّحف!

- أنا لا أذكر أيّ شيء.

هكذا أجاب الزعيم، ثم قال لراشد:

- لقد حضرت إلى بلدكم لتساعدني حكومتكم على استرداد حكمي لكنها خذلتني. إنها تريد أن تعَرضني على طبيب نفسايّ. هل أنا مجنون؟ هل الزعماء يمكن أن يُصابوا بالجنون؟ هل أنا مجنون يا وزيري؟

بان الرعب على وجه الوزير، وكان صاحب الأير قد عاد وأطلقه، فمشى على الأرض حتى وصل إلى ساق الزعيم فتسلَّقها، وظهر أمامه، فعاد الزعيم يمسك به ويسكب البيرة في فمه من جديد.

- مسكين.

قالت وداد. تساءل أسعد بصوت خفيض:

- أنا؟

هتف الوزير:

- يا أخي أنت مريض بالسرطان، ولعل الله يشفيك، لكن الزعيم ضاعت منه البلاد. ضاعت منه دولة كاملة..

لم يكن راشد يفهم لماذا يختلفون، ولم يفهم أيضًا كيف تعارفوا. لعلهم التقوا أكثر من مرة خلال أسبوع المطر الفائت وتوثَّقت علاقاتهم. وهتف أسعد سعيد رافعًا كوب البيرة:

- في صحة كل زعيم تضيع منه دولته!

ضحكوا جميعًا إلا الزعيم والوزير، الذي قال له راشد:

- تعرف أني حين قابلتك ظننتك مجنونًا؟

- سامحك الله يا أستاذ. أريد أن تستمع إليَّ باهتمام اليوم.

قال أسعد:

- أنا الذي سأقرأ معالجتي التلفزيونية أولًا. الأستاذ سيوافق على ذلك لأني أدفع منذ سنوات ثمن رغبتي في تحويل إحدى قصصه إلى سهرة تليفزيونية.

هتف الوزير في ضيق:

- يا أخي أسبوع كامل ونحن نستمع إلى قصتك عن هذا المجنون «وأشار لصاحب الشيء» أعطني الفرصة أكمل حكايتي للأستاذ.

- لا تتشاجروا. أنا اليوم قادر على الاستماع إلى كل

حكايا تكـم ..

قـال راشـد ذلـك وظهـرت داخلـةً مـن البـاب الممثلـة الجميلـة ترتـدي بالطـو ثمينًـا، وفي يدهـا حقيبـة جلديـة أنيقـة. همسـت وداد:

- الممثلة إحسان. شيء لا يصدق.

اسـمها إحسـان الممثلـة فكيـف نـسي اسـمها مـن قبـل أيضًـا. هـي أيضًـا جـاءت لتحـكي لـه قصتهـا.

ألقـت عليهـم التحيـة وجلسـت.. بـدا عليهـا الحـزن ثـم قالـت لراشـد:

- لقد جئت كما طلبت مني إلى برج العذراء.

وسكتت لحظةً، شاردةً، ثم أردفت:

- لم تترك لي عنوان البار.

خمَّنـت أنـه في منطقـة وسـط البلـد. كنـت كلمـا سـألت أحـدًا عنـه ينظـر إليَّ ويضحـك. بـار وبـرج عـذراء! كيـف؟ لكـن أحدهـم انفجـر باكيًـا وتركـني مسرعًـا...

.....

قسَّـم راشـد الوقـت بينهـم. قـال أنـه مـا دام هنـاك قصتـان محليتـان وقصـة واحـدة لبلـد أجنـبيّ، فليبـدأ بالاسـتماع إلى قصـة محليـة ثـم قصـة الزعيـم ثـم القصـة المحليـة الثانيـة. وافقـوا مُبتهجـين. وقبـل أن تطلـب الممثلـة أن يبـدأ بقصتهـا قـال:

- فليقرأ علينا أسعد المعالجة التلفزيونية لقصة صاحب الشيء..

بسرعةٍ فتح أسعد مظروفًا كان قد وضعه على المنضدة القريبة الخالية، واستعد ليقرأ الورق الذي بداخله. لاحظ راشد أن الوزير ينظر في الورق كأنما يريد أن يعرف ما إذا كانت الحكاية طويلة أم قصيرة.. ابتسم. كم هو مرغوب اليوم من الجميع.. شكرًا لك سالم سليمان!

قال أسعد:

- رفعت شاب فقير، أراد مثل كل الفقراء أن يكون غنيًّا.

هتف صاحب الشيء من مكانه وقال:

- هذا أول الخطأ. يسميني باسمي.

هتف الوزير بو علي:

- انتظر يا أخي حتى النهاية. لو علقت على كل كلمة لن ننتهي اليوم. أنتم مشكلتكم يمكن أن تنتظر. نحن في حاجة إلى كل دقيقة..

سكت صاحب الشيء غير مقتنع. وعاد أسعد سعيد ليقرأ:

- رفعت شاب وسيم.. «ابتسموا وهم ينظرون لصاحب الشيء الذي بدا راضيًا» ومتخرج من الجامعة، أبوه موظف بسيط وأمه مدرِّسة ابتدائي، وله ثلاث أخوات بنات، عائلة لا تصنع مجدًا، هكذا فكَّر رفعت، ففكر أن يصنع لنفسه

تاريخًا. هكذا قرر.

«بدأ صاحب الشيء يمتعض ويلم شيئه» واستمر أسعد:

- فليكن أبوه وكيلًا أول لوزارة التعليم وأمه ناظرة لمدرسة بنات ثانوية، ولتكن أخواته كلهن في الجامعات الخاصة، أما جده فلقد كان من الثوار الذين حاولوا إنقاذ البلد من الفقر والجهل والمرض.

هتف صاحب الشيء:

- والله كل هذه المعلومات صحيحة وأنا لم أؤلفها.

أشارت له وداد أن يسكت، واستمر أسعد:

- مات جد رفعت وخلَّف للعائلة قصرًا كان قد تسلَّمه من حكومة الثورة بالخدم والتماثيل والحديقة والأثاث الكلاسيكي واللوحات التشكيلية الأصلية والسجاد الإيراني والكلب.

«كاد صاحب الشيء يتكلم» فأسرع أسعد بالحديث:

- لكن رفعت أحبَّ أن يبني نفسه بنفسه لذلك رفض هذه الحياة الرخية وقرر أن يعيش بكدِّه، فراح يبحث عن فتاة جميلة وغنية ليقول بعد ذلك أنه يريدها لجمالها فتُعطيه ما لها.

هتفت وداد:

- الله أكبر...

وصفَّقت، فأشار لها الوزير بغيظ أن تسكت.

- سمع رفعت من صديق له أن مفتاح الثروة ينتظره في أحد البنوك الأجنبية حيث فتاة جميلة أبوها سفير سابق ترك العمل الديبلوماسي ليعمل في البيزنس، فذهب رفعت إلى البنك الأجنبيّ ليفتح حسابًا بخمسة آلاف جنيه لا يعرف أحد من أين توفرت له، وفي نيّته أن يلتقي بالفتاة الجميلة التي اسمها «غصن».

هتف صاحب الشيء:

- لم يكن اسمها غصن، لكنها كانت مثل الغصن طرية ميَّاسة.

وقالت إحسان:

- هل ستحكي لنا القصة خطوة خطوة هكذا؟

قال أسعد سعيد:

- هذا فيلم.

كان الزعيم قد نام بينهم وهو جالس. انشغلوا بالنظر إليه، وأشار راشد إلى النادل ليضع أمامهم زجاجات جديدة من البيرة. وقالت وداد لأسعد «بسرعة قبل أن ينام بو علي أيضًا» فابتسموا، واستمر أسعد في الحديث:

- راح رفعت يتردد على البنك، يسحب ألف جنيه ثم يعود في اليوم التالي ويضعها في الحساب، وفي كل مرة يتلكأ داخل قسم الاستثمار الذي تعمل فيه غصن، يسألها عن أهم المشاريع الاستثمارية التي يقوم بها أو يمولها البنك. كان ينصب الفخاخ لها ولم يكن يدري أنها بدورها كانت

تستعد له.

بدا صاحب الشيء راضيًا وقال:

- الله يرضى عليك يا أسعد باشا. أنا لا أدري لماذا يرفضون أعمالك في التليفزيون. لعل الست إحسان التي شرفتنا اليوم تساعدك. بالمناسبة يا ست إحسان لماذا تريدين الهرب من البلاد؟

انتبهت إحسان إلى كلامه، بدت عليها الدهشة. سألته مَن قال لك ذلك؟ قالت وداد: كل البلد تعرف أن الإرهابيين يطاردونك. أشار لهم الوزير أن يسكتوا. قال: حكايتكم لن تنتهي. أرجوكم اتركوا الأستاذ أسعد ينتهي. ثم وجَّه الحديث لراشد، ما رأيك يا أستاذ سالم أن نذهب من هنا لأكمل لك القصة وترى ماذا يمكن أن تفعل لنا؟ لكن راشد، الذي كان سعيدًا جدًّا بهذا الانهيار الذي عليه الجميع حوله، رفض الاقتراح بأن هز رأسه عدة هزات ثم أشار لأسعد أن يستمر فاستمر..

- دعته غصن يومًا إلى فنجان من القهوة في مكتبها بدلًا من الأسئلة السريعة التي يسألها ويمضي، وتأثرت غصن جدًّا بحكاياته عن كفاحه ورفضه أن يعيش على ما ورثته العائلة من جده وتطور، الحديث بينهما إلى أحوال البلاد التي يموت رفعت حبًّا فيها وحزنًا عليها. أليس كذلك يا رفعت؟

- كذلك والله يا أسعد، ولا زلت حزينًا على البلاد، خصوصًا مسألة الأيور التي تنتشر بالليل في الشوارع هذه.

ضحكوا بقوة، باستثناء راشد الذي نظر إلى إحسان التي نظرت إليه. وشخر الزعيم شخرة بدا أنه سينهض بعدها من إغفاءته، إلا أنه عاد وأغفى. واستمر أسعد:

- كانت غصن رقيقة الروح جدًّا يحمرُّ أنفها بسرعة وتكاد تبكي من التأثر، وقالت له «حرام عليك يا رفعت» فأدرك رفعت أن السدود انهارت بينهما تمامًا فدعاها إلى غداء في مطعم «نايت آند داي»... زار رفعت القصر الذي تعيش فيه غصن وقابل أباها رجل الأعمال فشرح له أبوها كيف اشترى القصر من أحد رجال الثورة، ولما لاحظ رفعت أن الأركان خالية من التماثيل ورأى ذقن الرجل طويلة أدرك أنه رجل محافظ ورجعي، فقال له أن أباه يحتفظ بالتماثيل في قصرهم، فبان الغضب على وجه أبي غصن، وأدرك رفعت أنه على هذا النحو لن يطلب زيارة عائلته أبدًا فيظل سره مكنونًا. وهنا قال صاحب الشيء ساخرًا: غيّر «مكنونًا» هذه، الله يخليك، لأن نطقها سخيف جدًّا، فلم يعلّق أحد، واستمر أسعد:

- تزوج رفعت وغصن في حفل كبير في أكبر فنادق العاصمة، وخرجا معًا من الفرح إلى الطائرة المتجهة إلى هاواي لقضاء شهر العسل. في الطائرة التقت غصن إحدى المضيفات التي كانت صديقة قديمة لها، فقدمت إليها رفعت باعتباره رجل أعمال شاب، والمضيفة بدورها أخبرت طاقم الطائرة بوجود عروس على الرحلة فجاء الطاقم بتورتة كبيرة واحتفلوا بالعروسين.

- اللـه. دي حاجـة أوريجنـال خالـص عمرهـا مـا ظهـرت في السـينما. إزاي رفـض التليفزيـون السـهرة دي؟

تساءلت الممثلة إحسان، فقالت وداد:

- المشـكلة فيمـا هـو قـادم، وأيضًـا أسـعد نفسـه مرفـوض ككاتـب منـذ كتـب معالجـة دراميـة لقصتـك العجيبـة يـا أسـتاذ.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

قال الوزير بو علي في يأس، واستمر أسعد:

- مـر الوقـت طويـلًا ونـام الـركاب فنهـض رفعـت ليذهـب إلى دورة الميـاه. خلـف دورة الميـاه كانـت المضيفـة تقـف مـع زميلـة لهـا وسـمع رفعـت هـذا الحـوار..

المضيفة: لا يوجد شخص في مصر إلا ونامت معه.

الزميلة: هكذا تعرفينها جيدًا؟

المضيفـة: أعرفهـا! إنهـا صاحبـة مـزاج. تحـب تنـام في كل مـكان. في العربيـة في الطيـارة في التاكـسي وتحـت المـاء وفي الخرابـات وتقـول لـك كلهـا تجـارب مفيـدة للـزواج!

الزميلة: هذا شيء يفوق العقل. وأهلها كيف يتركونها؟

المضيفـة: لا وقـت لـدى أبيهـا، شـغال في البيزنـس وكل شـهر لـه جـوازة وطـلاق. لكـن غصـن ذكيـة جـدًّا اصطـادت لهـا شـابًّا غلبانًـا يسـتر فضائحهـا..

هل هذا الحوار ناقص يا رفعت؟ لأ يا سيد أسعد..

وبدأ الوزير يضع خده على كفه في غيظ، واستمر أسعد:

في جـزر هـاواي أخرجـت غصـن منديـلًا أبيـض وجرحـت إصبعهـا بمـوسى ولوثـت المنديـل بالـدم وطلبـت مـن رفعـت أن يفعـل مثلهـا، وقالـت لـه الآن تعاهدنـا عـلى عـدم الفـراق إلى الأبـد. لقـد امتزجـت دماؤنـا يـا رفعـت. وسـألها: لمـاذا لوثـت المنديـل بالـدم؟ فقالـت لأن الأسرة تنتظـر دليـل بكارتهـا وطهارتهـا... بعـد العـودة...

هنا وقف الوزير بو علي وقال:

- يكفـي هـذا اللـه يخليـك. سـنعود إليـك. الزعيـم نـام تمامًـا، وأنـا أريـد أن أنهـض وأعـود بـه إلى الشـقة الـتي خصصتهـا لنـا حكومتكـم. أعطـوني فرصـة أن أكمـل حكايـتي للأسـتاذ ثـم اسـتمروا أنتـم في هـذا السـيناريو..

فكر راشد أن هذا حل معقول. وقالت الممثلة إحسان:

- يبـدو لي أن هـذا أفضـل، حـتى ينـصرف الرجلان، ثم نسـتمر نحـن. لكـن مـن حضرتـك؟ أنـا لا أعرفـك، ومن هـو الزعيم؟

قالت وداد:

- اللـه يخليـكي لا تسـأليه حـتى لا يبـدأ مـن البدايـة. باختصـار هـذا وزيـر والنائـم زعيـم سـابق تـم طردهمـا مـن بلدهمـا ويريـدان الأسـتاذ سـالم أن يسـاعدهما في العـودة إلى الحكـم.

أغمضـت إحسـان عينيهـا في دهشـة، أحسَّـت أنهـا في موقـف شـديد التعقيـد وغـير مفهـوم، وطـوى أسـعد الـورق وقـال للوزيـر:

- طيب ابدأ حضرتك بشرط أن لا تطيل..

- اسمع يا أستاذ.

قال الوزير، فانتبهوا كلهم..

- نوقظ الزعيم؟

تساءلت وداد.

- لا. الأفضل أن يظل نائمًا..

- تذكَّر أني طلبت منك ألَّا تتحدث في السياسة.

قال راشد للوزير محذِّرًا، فقال الوزير:

- اسمعني يا سيد سالم. المسألة الآن لا تحتمل التأخير -وخاطب الآخرين- أرجوكم لا تقاطعوني...

سكت لحظاتٍ، انتظروا فيها أن يتكلم... ثم تكلم:

- لقد أصدر الزعيم تعليماته للشعب أن يكون غنج النساء على أربعة مقامات موسيقية، مقام الرّصد لشمال البلاد، ومقام حجاز كار للجنوب، وللشرق النهاوند، وللغرب البيَّاتي. لا تندهشوا. إذا شئتم القصة من البداية أعيدها لكنكم فنانون وكتَّاب ويمكن لكم أن تعرفوا ما سبق تخمينًا أو يعيده عليكم الأستاذ سالم فيما بعد.

- استمر يا سيادة الوزير.

قال سالم، فاستمر الوزير بين دهشة الجميع:

- وهكذا صار على النساء أن يتعلَّمن الموسيقى، لأن التي

تخطئ صار مصيرها مثل مصير سريع القذف الذي سبق وحدثتك عنه. هل تذكر المصير؟ لا بُد. حلوة ابتسامتك هذه يا أستاذ. المهم قصر الزعيم كان بالضبط في منتصف البلاد، وحيث يمتلك عددًا ضخمًا من العلماء الشياطين طوروا نظام الاتصالات بحيث صار يرى ويسمع معًا، لكنَّ همَّ الرؤية والاستماع كان كبيرًا على نفسه، فوزع النكاح بحيث يكون أسبوعًا لكل ناحية من البلاد، وهكذا كان الشهر يدور حتى يقابل الرجل زوجته مرة أخرى. لم يغضب الناس، كانوا كما قلت لك قد كرهوا النكاح، ارتاحوا...

ضحك صاحب الشيء. هتف: أول مرة أرى شعبًا يكره النكاح.

خجلت الممثلة، اندهشت وداد. بدأ بقية الجالسين في البار ينتبهون، فسحبوا مقاعدهم وراحوا يحيطون بالجميع ويسمعون، ولم يزل الزعيم نائمًا. استمر الوزير:

- قلَّت أعداد القتلى حتى جاء يوم أغبر ناداني فيه الزعيم غاضبًا. هل هذا شعبي يا وزير؟ سألته ماذا تقصد يا مولاي؟ صرخ: هل هذه هي الملابس الداخلية لشعبي؟ خفت وارتعدت. قلت: هذا ما تحمله سفنك فأنت الذي تحتكر تجارة الملابس الداخلية. صرخ: أنا لا يمكن أن أختار لشعبي هذه السوتيانات والكيلوتات والكومبينات. شعبي ليس بخنازير. اخلع ثيابك أرني سروالك. اخلع بسرعة.

بدت الدهشة على وجوه الجميع، والذين يحيطون بهم راحوا ينظرون لبعضهم غير مُصدِّقين ما يسمعون.

- لا تبتسموا. إنها مأساة. لا تسخروا مني. خلعت ثيابي وعرف الزعيم أن جميع ملابس الوزراء الداخلية من أفخر أنواع القطن فقرر أن يرتدي جميع الوزراء وعائلاتهم سراويل من وبر الجمال بالصيف والشتاء، واستورد سفنًا لا نهاية لها من الملابس الداخلية الناعمة للشعب عندًا في الوزراء، ثم قرر تغيير المقامات الموسيقية في كل ناحية من البلاد وهكذا صار على النساء أن يعُدنَ لتعلُّم الموسيقى من جديد.

وقف صاحب الشيء واتجه إلى باب الخروج صامتًا. بعد أن ابتعد التفت إليهم وقال:

- برج العذراء صار برج المجانين.

ضحك الجميع وبدا التوتر على وجه الوزير، فقال له راشد:

- أكمل بسرعة...

فأكمل:

- قلت له يا فخامة الزعيم رفقًا بالقوارير. قال لي يا وزيري الأحمق ما الحضارة الإنسانية إلا ملابس وجنس، ولأننا في عصر الميديا سوف أصادر كتبًا مثل رجوع الشيخ إلى صِباه والرّوض العاطر ونزهة الألباب فيما لم يذكر في كتاب والأيك في فن النيك وغيرها. وظهرت لي ثقافته الجنسية رائعة وتعجَّبت كيف يُصادر كتبًا تربَّينا كلنا عليها، لكنه أوضح لي أن فيلمًا واحدًا من أفلام البورنو أهم وأسرع تأثيرًا، وكان

على حق. دائمًا هو على حق. وزاد على ذلك أنه قرر أنه من حق الشعب أن يرى بعضه بعضًا، وليبحث العلماء عن وسيلة تجعل كل شخص يرى ما يفعله الشخص الآخر في امرأته أو عشيقته في أيّ مكان وفي أيّ وقت. ولقد وجد العلماء وسيلة لذلك، ولَيتَهم ما وجدوا!

- هذه ألف ليلة جديدة.

قالت الممثلة إحسان.

- إنها حكاية عجيبة حقًّا!

قالت وداد.

- أكمِل. أكمِل يا حاج.

قال أحد الروَّاد المتحلِّقين حولهم، فضجّوا بالضحك، وهنا انتفض الزعيم، واستيقظ ونظر حوله يتأكد من مكانه. وقال أسعد:

- طبعًا الشعب انبسط!

- أبدًا. ازداد الغمّ، حين قرر الزعيم أن يكون النكاح على طريقة واحدة، فينام الرجل على ظهره وتقوم المرأة بعمل كل شيء. لقد ظل الرجال آلاف السنين يركبون النساء وقد آن الأوان أن يحدث العكس آلاف السنين القادمة.

ضحك المتحلِّقون حولهم بقوة. والبارمان بدوره ترك مكانه وسحب كرسيًّا وجلس معهم.

- هل كنت مخطئًا يا سيادة الكاتب؟

تساءل الزعيم فجأةً!

- لا.

أجاب راشد..

- الزعماء دائمًا على حق.

قال أسعد. وانفتح باب البار ودخل المغنّي الأعمى يحمل العود. قام البارمان وسحبه إلى مكانه المعتاد وعاد ليجلس مع الجالسين.

قالت وداد:

- ليتك تغني لنا شيئًا جديدًا اليوم من أجل الأخوة اللاجئين الذين معنا.

تنحنح المغنّي وأخرج من جيب سترته ريشةً وراح يعزف. فقال أسعد يائسًا:

- تاني بيت العز يا بيتنا؟ يا أخي نحن جميعًا مطرودون من بيوتنا.

لكن المغنّي راح يردد الأغنية، وشيئًا فشيئًا سكت الجميع ينصتون، وعلى عكس ما هو متوقَّع اندمج الجميع مع الأغنية، وبدأت عينا إحسان تترقرق بهما الدموع.

وهمس لها راشد:

- هل حقًّا ستهربين من البلاد؟

همست له:

- ليتك تترك هذا المكان وتسمعني. لقد جئت إليك كما طلبت فوجدت حولك جماعة من الحمقى. إنهم حتى لم يفرحوا بحضوري كأني لم أكن ممثلة مشهورة.

وقال أسعد سعيد للوزير:

- هل يمكن أن تنتهي القصة هنا لأبدأ أنا في إكمال حكايتي؟

- انتظر حتى أحكي لك كيف كان الزعيم المبجَّل يأكل خصومه. أجل كان يحتفظ في ثلاجاته بمخاصي وأيور الرجال ونهود وأفخاذ النساء. تمامًا كالأفريقي عيدي أمين..

- كان يحتفظ بالقطع الممتازة.

هتف البارمان فضحك الجميع. قال الزعيم:

- لا تسخروا منّي فأنا أقل من يفعل ذلك.

ثم نهض ليجلس بعيدًا عنهم على منضدة وحده ويبكي. كان المغنّي الأعمى قد انتهى من الأغنية وبدأ أغنية

«يا أمه القمر ع الباب» وهي أغنية يحبها الجميع، فراحت وداد وإحسان تتراقصان بأكتافهما وهما جالستين. واستمر الوزير يتكلم...

- صار الزعيم عدوًّا للشعب كله. أصبح الشعب عريانًا أمامه وأمام بعضه البعض، فاتفقوا جميعًا أن يمارسوا الجنس دفعة واحدة وفي ساعة صفر واحدة، وأن ترتفع أصواتهم وأن لا يلتزموا بالمقامات، وحين أقبلت الساعة

وجد الزعيم نفسه في بحر متلاطم من الجنس والجنون. كان العلماء الخبثاء قد أفسدوا الأجهزة بحيث لا ينقطع الصوت ولا ينخفض، فترك الزعيم غرفة نومه إلى غرفة أخرى بلا فائدة، وهكذا من غرفة إلى غرفة راحت الأصوات تطارده حتى خرج إلى ردهة القصر الكبيرة فازدادت الأصوات وتضخَّمت، وراح ينادي على العلماء والوزراء ولا أحد يُجيبه. لقد نسي أنهم من الشعب أيضًا، فجرى إلى باب القصر فوجده موصدًا، فبحث عن قطن يسد به أذنيه فوجده يزيد من حِدَّة الأصوات وهي تخترقه، أغلق عينيه لكن الصور كانت قد انطبعت فيها -كان الزعيم يزداد بكاءً ونشيجًا وهم ينظرون إليه- أولاد الحرام امتزجت أصواتهم بموسيقى جاز وآلات نفخ وترومبيت وسيمفونيات فاجنرية وطلقات رصاص ومَدافع. انظر إنه يبكي بشدة. الأصوات تعود إليه المسكين!

كان الزعيم يسدّ أذنيه بيديه.

- كاد يجنّ، ومن جنونه راح يعضّ ذراعيه ويأكل أصابعه -ولاحظوا أن أصابعه مقروضة الأطراف فعلًا- ثم انفتح له الباب، فخرج يجري حتى وصل إلى أكبر غوطة على تخوم البلاد، لأن الشوارع كلها كان بها مكبرات صوت، ونزلت فيها حشود الشعب تغنّي وتعزف وتدق الدُّفوف حوله، وراح الأطفال يقذفونه بالحجارة!

- كفّ يا وزير.

صرخ الزعيم وهو يضرب المنضدة بكّفيه فكاد يكسرها. وعاد يبكي بهدوء. حطَّ على الجميع صمتٌ.

- كنت أعرف النهاية وكنت أنتظره. بحثتُ له عن مأوى عند بعض البدو، تركته فيه وجئت إلى بلادكم أبحث له عن طريقة محترمة لإحضاره، ولقد استجابت حكومتكم لطلبي وجاءت به إلى هنا، بشرط أن لا يفكر في العودة إلى الحكم.

هتفت وداد:

- هذا إذًا سر بكائه..

كان المغنّي الأعمى قد سكت، والجالسون في دهشتهم، وبدا على وجه أسعد اصفرار.

- مالك؟

سألته وداد. ظهر على وجهه ألمٌ شديد.. هتفت في الوزير:

- ماذا كان يضيرك لو أكمل أسعد قصته وتركناك مع الأستاذ سالم. أسعد مريض بالسرطان تأتيه نوبات ألم شديدة. قد يموت الآن بيننا ولا يُكمل القصة.

لكن أسعد استعاد نفسه. أشار إليها أن تسكت.

- هل تحب أن أكمل لك القصة يا أستاذ؟

ظهر الضيق على وجه إحسان الممثلة، لكن راشد مدَّ يده وربت على فخذها أن تتمهَّل. أمسكت وداد ورق أسعد وقالت:

- سأقرأ أنا.

وراح الروَّاد المتحلِّقون حولهم يفركون أياديهم في سعادة

ويبتسمون، ووقف البارمان يقول:

- سأوزع عليكم دورًا آخر من البيرة على حسابي. حكاياتكم تستحق ذلك..

كانوا يعرفون أنه كاذب. وأنه سيُضيف حسابها إلى حساباتهم. لم يكترثوا. راحت وداد تقرأ:

- بعد العودة فكَّر رفعت وغصن في أول مشروع لهما. بناء أوتيل صغير على البحر. حدَّدت غصن لرفعت موعدًا مع مدير الاستثمار في بنك آخر غير الذي تعمل فيه.

كان راشد يرى أربعة أيور صغيرة تدخل من الباب وتتجه إلى إحدى المناضد وتجلس حولها، ولدهشته رأى النادل يضع أمامها أربعة أكواب صغيرة من البيرة. هل صارت الأيور شيئًا حقيقيًّا يتقبَّله الناس في المدينة؟ نظر إلى الممثلة إحسان. إنها تبدو حزينة مكسورة. مَن تلك التي كانت معه في الغرفة؟ سأل نفسه من جديد.. وصرخت وداد:

- اسمع أيها الوزير بو علي. لقد استمعنا إلى خرافاتك. زعيمك هذا ليس إلا أير صغير تافه..

لاحظ راشد أن الأيور الأربعة التفتت تنظر إليهم، ثم عادت إلى وضعها. هز رأسه ينفض عنه هذه الخيالات. لا يمكن أن يكون ما يراه حقيقيًّا. قال للوزير:

- ماذا تريد منّي بالضبط؟

- أن تكتب مقالًا لحكومتك تتشفَّع فيه للزعيم أن تساعده على العودة إلى الحكم.

- طيب. هل يمكن أن تنتظر قليلًا؟ سأفكر معكما في الأمر وكيف ننجزه. فقط قل للزعيم أن يكف قليلًا عن البكاء.

قال أسعد بألمٍ:

- فرصة الآن بعد أن خرج رفعت فالجزء الباقي مُحرج جدًّا.

وعاد المغنّي يعزف «بيت العز يا بيتنا» فهتف أسعد:

- الله يخرب بيت أمك. يا أخي اسكت حتى ننتهي.

وهمس أحد الروَّاد لزميله «ما رأيك أن نقبض على الجميع الآن؟» لكن الآخر همس إليه «دعنا نسمع القصة للنهاية». وكان الجميع قد سكتوا فعادت وداد تقرأ:

- بسرعة حصل رفعت وغصن على عقد شراء مزوَّر لقطعة أرض على الساحل، وبسهولة حصلا على تقرير الخبير المثمّن للمشروع الذي أطلقا عليه اسم «حنا للضيف» والذي سيتكلف ثلاثة ملايين جنيه، عرضا مائة ألف جنيه رشوة لمدير الاستثمار الذي اعتذر وطلب فقط أن يقضي معهما سهرة لطيفة، وفي نفس اليوم بالليل زارت رفعت أخته زينب. عرف رفعت أن غصن تزور أهله سرًّا، وأنها نقلت أسرته كلها من الحي الفقير إلى أحد الأحياء الراقية، وطلبت من رفعت أن تبقى زينب معهما.

في الليلة التالية سهر الجميع في ملهًى ليليٍّ مع مدير الاستثمار، بعد السهرة صحب مدير الاستثمار زينب معه في سيارته. قال رفعت لغصن أن زينب جادَّة ويمكن أن تقتل مدير الاستثمار إذا حاول الاعتداء عليها فضحكت غصن

وقالت له «هل تعرف يا حبيبي أول شيء طلبته زينب منّي حين قابلتها؟ لقد طلبت أن أخلّصها من حمل سِفاح!

حصل رفعت وغصن على المليون الأول، وزارت زينب أسرتها في سيارة فيات جديدة، وعادت ومعها أختها فايقة الأصغر منها التي صحبها مدير الاستثمار إلى الملهى الليليّ، وحصل رفعت وغصن على المليون الثاني.

- يا سلام! «حكاية زيّ اللي بصحيح»

قال البارمان غير مُصدِّق، واستمرت وداد:

- زارت فايقة أسرتها وعادت بأختها الأصغر نازلي في سيارتها البيجو الجديدة، وحصل رفعت على المليون الأخير -وأسرعت وداد- لكن غصن الطمّاعة لم تكتف بذلك، فاجأت رفعت برغبتها في فتح محل لبيع العاديات، حيث تعرفت على شخص مهم سيمدّها بقطع آثار أصلية، وحتى تبيع الأصلية لا بُد أن تعرض قطعًا مُقلَّدة في محل. اسمعوا اسمعوا. هتفت وداد وواصلت القراءة، بينما كان الوزير قد تمكن من إسكات الزعيم عن البكاء، وراح الاثنان يتابعان الحديث من المنضدة الأخرى في غيظ.

حضر الافتتاح السيد المحافظ وحضرت نازلي مع رجل الآثار في سيارته ال بي. إم. دبليو. ومعها أمها التي قررت أن ترعى شئون بناتها بعد أن دخل الأب في حالة من الصمت اللا نهائي وأطلق لحيته وأهمل هندامه، ثم فقأ عينيه وترك البيت إلى الصحراء واختفى على طريقة «أوديب» في المسرحية الشهيرة.

تبادل الروّاد المحيطون بهم النظرات. كان واضحًا أنهم يتساءلون عمَّن هو «أوديب» الذي ذكرت اسمه. قال أحدهم «قصدك أديب يا مدام» أشارت إليه بيدها أن يسكت، واستمرت تقرأ:

- بعد الافتتاح ذهب الجميع إلى محل أسماك كبير، لكن المحافظ وهو يتصدر المائدة بكى فجأةً، وراح يتحدث عن ابنه المتخلّف عقليًّا الذي يقف يمارس العادة السرية وسط صالة البيت أمام الضيوف، وهنا اقترحت أم رفعت أن يسلم المحافظ ابنه لنازلي تعلمه الجنس، فهي صغيرة ومناسبة للولد. لكن التيلفون المحمول لغصن دق فردت على المكالمة وتجهَّمت لحظةً، ثم قالت أن أباها مات. حطَّ الوجوم على وجوه الجميع، لكن غصن ضحكت وقالت أن أباها مات وهو فوق امرأة أمريكية، ثم قالت أنه مات في عز الشغل. اندهش الجميع من هذه اللغة السوقية لغصن، لكنها استمرت تتحدث وشرحت كيف أن أباها مات في لوس أنجلوس حيث حاول أن يقضي ليلة مع جوليا روبرتس لكنها طلبت عشرة ملايين جنيه، فاستعاض عنها بكومبارس مات فوقها. هكذا حدَّثها مدير أعماله هناك على الهاتف.

- يا جماعة هذا كثير جدًّا!

هتف الوزير. لكن بدا أن إحسان صارت مستعدَّة لسماع القصة لآخرها، فهي على الأقل قريبة من قصتها، وقالت لوداد:

- استمرّي يا مدام. إنها حكاية ممتعة.

- أنا مدموازيل يا هانم!

قالت وداد ذلك واستمرت تقرأ:

- بعد أيام من الافتتاح والعشاء قابلت نازلي في عربتها المرسيدس أخاها رفعت وزوجته غصن وحكت لهما كيف حاولت أن تساعد الولد المتخلف أن يضع ذكره فيها، لكنه لم يستطع، وكانت كلما جذبته نحوها يضحك ويتراجع للخلف حتى قذف على يدها.

- الآن وصلت الأمور إلى ما لا يُطاق.

همس الرجل الذي طلب من زميله أن يقبضا على الجميع من قبل لكن زميله قال له أن ينتظر فهناك ما هو أكثر أنه يريد توريطهما للنهاية فكل شيء يتم تسجيله.

- لم تيأس نازلي ولا المحافظ الذي جعل الولد يركب فوقها ثم راح يضغط عليه بلا فائدة، فجاءت الأم غاضبة وقالت «ليه تبهدلوا الولد كده!» وطلبت منه أن ينام على ظهره وتجلس نازلي عليه وتقوم بالعملية كلها.

«تمامًا كما أمر الزعيم يا وزير في بلادكم». قالت ذلك وداد واستمرت تقرأ:

- نجحت العملية وكان الولد يتنفَّس بسرعة، وفي خوف، وتتَّسع عيناه من الدهشة والفرح، وفي اللحظة التي قذف فيها صرخ وضحك واهتز فأسقطها من فوق السرير وراح يجري عاريًا، ولولا أن باب الشقة كان مغلقًا لخرج إلى

الشارع وكانت فضيحة. بعد ذلك احتضنته الأم وراحت تهدهده وتربت على ظهره وعهدت إلى الخادمة أن تصحبه إلى الحمام وتحميه، وما هي إلا لحظات حتى سمعوا صوت الخادمة تصرخ. وغرق الجميع في الضحك.

الجميع.. مَن تحكي عنهم القصة ومَن يجلسون في برج العذراء. وقالت الممثلة إحسان:

- وماذا حدث لغصن وزوجها؟

قال راشد رشاد:

- نجحا في الحصول على قرض بعشرين مليون جنيه وقررا الهرب من البلاد. في المطار فوجئ رفعت بأنه ممنوع من السفر. بكت غصن وهي تودِّعه، وراح يذكِّرها بعهدهما على عدم الافتراق، فقالت له أنها من أوروبا ستُرسل له كل النقود التي حوَّلاها باسمها. لم ترسل شيئًا ولم تعُد، وترك رفعت البلاد بعد حُكم بخمس سنوات سجن قضاها كلها.

هتفت وداد بين دهشة الجميع، وسألت راشد:

- كيف عرفت القصة؟

قال:

- هل نسيتِ أنني مؤلف؟

وفي نفسه كان قد قرر أن يقتل أسعد سعيد أو لا يعود إلى هذا المكان أبدًا. القصة قصته هو. قصة حياته هو قبل أن يتزوج للمرة الثانية الزوجة التي ماتت وابنته في

الحادثة، فكيف عرفها هذا المريض! الآن يتذكر راشد أنه قصَّ القِصة كلها على سالم سليمان في البلد الصحراويّ، وأن سالم لم يعلِّق بكلمة، ثم قال لسالم أنها قصة من اختراعه يتمنَّى أن يحوِّلها لفيلم تليفزيوني بعد عودته، لكن سالم قال له أنه يعرف أنها قصته الحقيقية، وأنه لا يجب أن يخشاه.

وبدأ عرقٌ يتفصَّد على وجهه، ولاحظ الجميع الإعياء الذي أصابه بينهم، لكن باب البار انفتح ودخل منه ضابط برتبة كبيرة خلفه ثلاثة ضباط برتبة أقل. ما إن رأى الضابط الكبير الزعيم حتى هتف.

- أنت هنا يا سيدي ونحن نبحث عنك في كل مكان!

رأى راشد الأيور الأربعة قد هربت من البار. وسألهم الضابط الكبير:

- هل حكى لكم شيئًا؟

قالت وداد:

- لقد حكى لنا الوزير القصة كاملة.

- إذًا هو يستحق ما قررته الدولة. أن تعرضه على طبيب نفسيّ. هيا معي أيها الزعيم. هذا ليس المكان اللائق بك.

كانت إحسان تطأطئ رأسها في محاولة أن لا يظهر وجهها للضابط الكبير، الذي فاجأها وقال:

- وأنتِ يا ست إحسان لا تخافي من شيء. بلدنا أمان

ونحن نراقب كل شيء. لا تحاولي الهروب عن طريق الأجانب. الإرهابيون لن يصلوا إليك.

أمسك أحد الضباط الصغار بيد الزعيم وأمسك ضابط آخر بيد الوزير، وتأهَّب الجميع للانصراف، لكن الضابط الكبير نظر إلى المغنّي وقال:

- كيف حالك يا مولانا الشيخ؟

- بخير يا باشا الحمد لله.

أجابه بذلك وكاد يقف، فقال الضابط:

- خليك مكانك. لا داعي للوقوف. لكن انتبه.

- أنا فقط أغنّي يا باشا.

- نعم، لكنك دائمًا تغنّي بيت العز يا بيتنا. إنك لا تغير الأغنية أبدًا وهذا له معنى. إنك تسخر من الدول. دولتنا فقيرة لكن نحبه..

- والله يا باشا كثيرًا ما أغنّي «يا أمه القمر ع الباب».

- طيب وهي دي شوية؟ دي دعوة للاستعمار يا مولانا. والاستعمار ليس القمر!

ارتعد المغنّي. اندهش الجميع، وتقدَّم الضابط الكبير وخلفه الضباط الصغار ومعهم الزعيم والوزير وعاد الرواد كلٌّ إلى مكانه. بعضهم انصرف. ورأى سالم ثلاثة أيور تعود إلى البار وتجلس إلى المنضدة نفسها التي كانت تجلس إليها منذ قليل. كان قد سمع أثناء حديث الضابط صوت فرامل

قوية في الخارج. لا بُد أن سيارةً دهست الأير الرابع. وقالت الممثلة إحسان بصوت خافت:

- أظنك لن تستطيع أن تستمع لقصتي الآن!

لم يرد. أخرجت من حقيبتها مظروفًا كبيرًا قدَّمته إليه.

- على أيّ حال لقد كتبتها لك. اقرأها وإذا استطعت مساعدتي هاتفني. في المظروف أيضًا كارت بكل تليفوناتي. أرجوك لا تُعطِها لأحد.

كان هو ينظر بحِدَّة إلى أسعد سعيد الذي بدوره كان لا يفهم لماذا ينظر إليه كذلك. كان راشد رشاد يفكِّر متى تزوج من زوجته التي ماتت، هل حدث ذلك بعد زواجه من غصن حقًّا! لا. لم تكن غصن أبدًا زوجته. وزوجته التي فقدها كانت الأولى والأخيرة. لكن لا بُد من قتل أسعد سعيد..

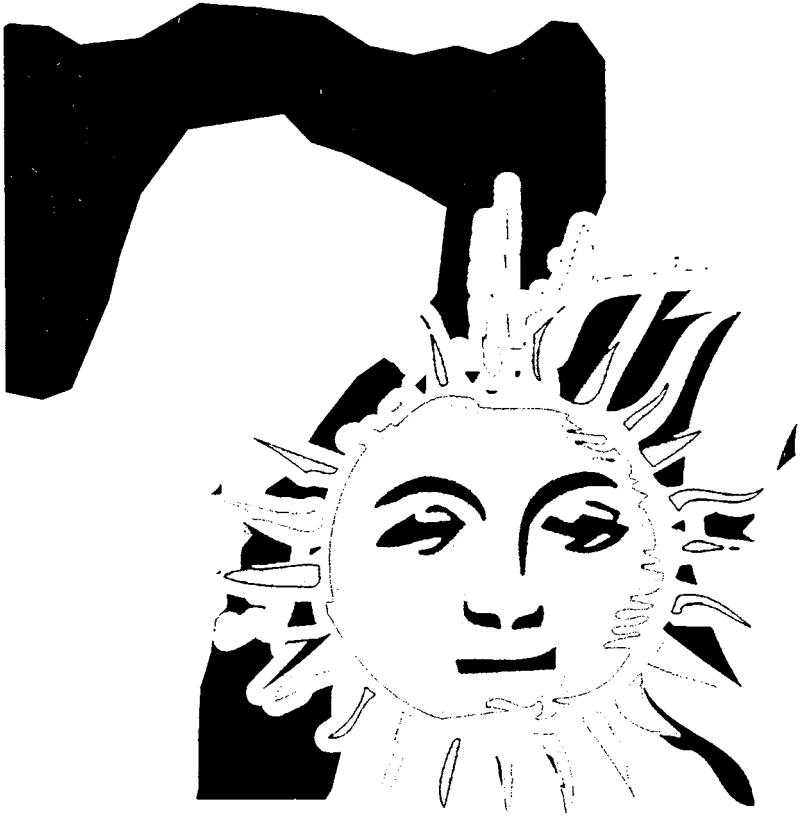

«ماذا يحدث لو فشل في قتل أسعد سعيد؟»

كان هـذا هـو السـؤال الـذي قفـز إلى ذهنـه وهـو يسـتيقظ مـن نومـه. سـؤال رآه مُعلَّقًـا أمامَـه في فضـاء الغرفـة.

مـاذا يحـدث لـو نجـح في قتلـه؟ هـل سـيحمل صورتـه بعـد أن حمـل صـوت سـالم؟ وإذا حمـل صورتـه سـيناديه النـاس بأسـعد سـعيد، وسيكتشـفون أنـه لـم يكـن يحمـل مـن سـالم إلا صوتـه وأنهـم كانـوا عـلى خطـأ حـين نـادوه سـالم ومـن ثَـم سيكتشـفون أن سـالم قـد قُتـل وسـيتهمونه بقتلـه بالتأكيـد..

هكـذا مـع أول ضـوء يدخـل الحجـرة أصابتـه الحـيرة، وأصابه العجـز عـن الفهـم... لـم يفكـر كيـف كان صاحـب الـشيء يتجـاوب مـع أسـعد باعتبـار أن مـا كتبـه هـو قصتـه هـو. إنـه شـخص فاقـد الذاكـرة فيمـا يبـدو. شـخص حُطـام!

خـرج مـن الغرفـة إلى الصالـة فوجـد فـرح يدخـل مـع الضـوء مـن شـيش النافـذة ويقـف بعيـدًا في ركـن مـن الصالـة وفي كلٍّ

من يديه أير صغير يضغط عليه لحظة فيتمدد، ثم يعود يُرخي قبضته فينكمش الأير ويردد بين الأيرين بصره ويقفز ضاحكًا.. الأفضل أن يقتل فرح. لو قتله انتهت كل كوابيسه. لكن فرح خرج مرةً أخرى من الباب المغلق حاملًا معه الأيرين.

في الحمام، وهو تحت الدش، فكَّر أنه من الأفضل له عدم الذهاب إلى برج العذراء. على الأقل لعدة أيام، ولو طالت يكون أحسن، أسعد سعيد مريض بالسرطان ويبدو من الألم الذي ينتابه أنه سيهلك وحده..

ثلاثة أيام بعد ذلك ظلَّ يحلم حُلمًا واحدًا. يدخل إلى مسرح كبير فيه كل نجوم الكوميديا فيراهم مُعلَّقين على ستارة المسرح الكبيرة، صاعدين هابطين كالحشرات، والجمهور صاخبٌ بالضحك، ثم يمشي في طرقة طويلة مفروشة كلها بضفادع تضحك. حُلم لم يفهم مغزاه أبدًا. وفكَّر في انقطاع البنات عن الحضور إلى مكتبه، وأنه لم يستقر على سكرتيرة منهنَّ، وأنهنَّ أخذنَ منه نقودًا كثيرةً واختفينَ، ووداد بدورها لم تعُد تأتي. وتذكَّر أنه لم يقرأ بعدُ قِصة الممثلة إحسان، وكانت صحف الأيام السابقة مُلقاة بإهمال على المكتب، فجلس يقرأ بعض صفحاتها.

اغتيال الفنانة إحسان على يد مجهول.. عنوان كبير في الصفحة الأولى.

«دخل مجهولون شقة الممثلة إحسان ليلة أمس وأطلقوا عليها النار وعلى أخيها الصغير أيضًا. سمع سُكَّان العمارة

صوت الرصاص فأبلغوا البوليس الذي وصل على الفور، وبدأ يحقق في الحادث. الحادث غامض لكن ليس هناك ما يدل على أنه ارتُكِب من قِبل الجماعات الإرهابية. كذلك ليس هناك ما يدل على أيّ قاتل آخر.. كانت هناك خلافات بين الممثلة وزوجها رجل الأعمال لكنهما انفصلا منذ عام، وكانا على علاقة طيبة بعد الانفصال. كانت الممثلة قد تعرَّضت لانتقاد عنيف من قِبل الجماعات الإرهابية بعد فيلمها الجديد الذي اضطرت الرقابة إلى منعه بعد أن كانت صرَّحت به من قبل. هذا أول حادث من نوعه لممثلة. لقد أصدرت أكثر من جماعة إرهابية أنها ليست لها علاقة بالعملية. مَن يستطيع أن يحل اللغز! هناك شائعات بأن الممثلة كانت في طريقها لطلب اللجوء السياسيّ لإحدى الدول الأجنبية. ما هي هذه الدولة؟ وهل الإشاعات صحيحة؟»

ارتدى ملابسه وأخذ طريقه إلى برج العذراء.

عندما وصل كان في نيّته أن يجلس وحده، خاصةً والوقت نهار. إنه يفكر هل يجد حلًّا للغز موت إحسان في رسالتها؟ هل لو فتح الرسالة ووجد فيها شيئًا يفيد التحقيق سيقدِّمه للبوليس، وإذا قدَّمه فهل لن يجر عليه المتاعب؟ لكن ما إن دخل البار حتى هتف البارمان:

- سالم بك وصل يا أسعد أفندي...

ورأى أسعد جالسًا في ركن بعيد يشرب البيرة في خشوع. للحظةٍ فكَّر أن يتراجع، وللحظةٍ أخرى فكَّر أنه يمكنه أن

من يديه أير صغير يضغط عليه لحظة فيتمدد، ثم يعود يُرخي قبضته فينكمش الأير ويردد بين الأيرين بصره ويقفز ضاحكًا.. الأفضل أن يقتل فرح. لو قتله انتهت كل كوابيسه. لكن فرح خرج مرةً أخرى من الباب المغلق حاملًا معه الأيرين.

في الحمام، وهو تحت الدش، فكَّر أنه من الأفضل له عدم الذهاب إلى برج العذراء. على الأقل لعدة أيام، ولو طالت يكون أحسن، أسعد سعيد مريض بالسرطان ويبدو من الألم الذي ينتابه أنه سيهلك وحده..

ثلاثة أيام بعد ذلك ظلَّ يحلم حُلمًا واحدًا. يدخل إلى مسرح كبير فيه كل نجوم الكوميديا فيراهم مُعلَّقين على ستارة المسرح الكبيرة، صاعدين هابطين كالحشرات، والجمهور صاخبٌ بالضحك، ثم يمشي في طرقة طويلة مفروشة كلها بضفادع تضحك. حُلم لم يفهم مغزاه أبدًا. وفكَّر في انقطاع البنات عن الحضور إلى مكتبه، وأنه لم يستقر على سكرتيرة منهنَّ، وأنهنَّ أخذنَ منه نقودًا كثيرةً واختفينَ، ووداد بدورها لم تعُد تأتي. وتذكَّر أنه لم يقرأ بعدُ قِصة الممثلة إحسان، وكانت صحف الأيام السابقة مُلقاة بإهمال على المكتب، فجلس يقرأ بعض صفحاتها.

اغتيال الفنانة إحسان على يد مجهول.. عنوان كبير في الصفحة الأولى.

«دخل مجهولون شقة الممثلة إحسان ليلة أمس وأطلقوا عليها النار وعلى أخيها الصغير أيضًا. سمع سُكَّان العمارة

صوت الرصاص فأبلغوا البوليس الذي وصل على الفور، وبدأ يحقق في الحادث. الحادث غامض لكن ليس هناك ما يدل على أنه ارتُكِب من قِبل الجماعات الإرهابية. كذلك ليس هناك ما يدل على أيّ قاتل آخر.. كانت هناك خلافات بين الممثلة وزوجها رجل الأعمال لكنهما انفصلا منذ عام، وكانا على علاقة طيبة بعد الانفصال. كانت الممثلة قد تعرَّضت لانتقاد عنيف من قِبل الجماعات الإرهابية بعد فيلمها الجديد الذي اضطرت الرقابة إلى منعه بعد أن كانت صرَّحت به من قبل. هذا أول حادث من نوعه لممثلة. لقد أصدرت أكثر من جماعة إرهابية أنها ليست لها علاقة بالعملية. مَن يستطيع أن يحل اللغز! هناك شائعات بأن الممثلة كانت في طريقها لطلب اللجوء السياسيّ لإحدى الدول الأجنبية. ما هي هذه الدولة؟ وهل الإشاعات صحيحة؟»

ارتدى ملابسه وأخذ طريقه إلى برج العذراء.

عندما وصل كان في نيّته أن يجلس وحده، خاصةً والوقت نهار. إنه يفكر هل يجد حلًّا للغز موت إحسان في رسالتها؟ هل لو فتح الرسالة ووجد فيها شيئًا يفيد التحقيق سيقدِّمه للبوليس، وإذا قدَّمه فهل لن يجر عليه المتاعب؟ لكن ما إن دخل البار حتى هتف البارمان:

- سالم بك وصل يا أسعد أفندي...

ورأى أسعد جالسًا في ركن بعيد يشرب البيرة في خشوع. للحظةٍ فكَّر أن يتراجع، وللحظةٍ أخرى فكَّر أنه يمكنه أن

يجلس بعيدًا ولا يشعر به أسعد الذي يبدو مستغرقًا في الشرب متوحِّدًا معه، لكن أسعد كان قد رفع رأسه إليه بعد نداء البارمان، ولم يعُد الجلوس بعيدًا عنه مُمكنًا...

باغته أسعد بالقول بهدوء:

- أرجوك لا تقتلني. لا تفكِّر حتى في قتلي. إنها ليست قصتك. هي قصة كاتب ظهر في الحياة الأدبية فجأةً منذ سنوات طويلة ثم اختفى. كان اسمه فيما أذكر رشاد. راشد رشاد. صحيح هو اختفى تقريبًا مع موعد اختفائك نفسه، لكن لا وجه شبه بينكما..

نظر إليه ولم يتكلم. وضع البارمان أمامه زجاجة بيرة وكوبًا وقال:

- هل معقول أن يقتل الأخ أخاه؟

كيف سمع كلام أسعد حقًّا مع أنه كان تقريبًا يهمس؟ وواصل أسعد الحديث:

- ثم إن حياتي صارت محدودة. بقائي في الدنيا قليل. ربما أسبوع أو عشرة أيام..

كان أسعد بالفعل شاحبًا جدًّا. ودخل الفتى صاحب الشيء فجأةً وأخذ مكانه.. بدا عصبيًّا جدًّا ونادى البارمان بصوت غليظ فأقبل عليه مُسرعًا وانحنى يفك له أزرار بنطلونه، فصرخ فيه:

- أنا أريد البيرة. اترك البنطلون. خلاص. البلد امتلأت بالأيور يا روح أمك..

انتبه راشد إلى صاحب الشيء لكن أسعد همس له:

- صاحبنا فقدَ عقله!

سكت راشد، لم يرد. كان النادل قد تراجع بسرعةٍ، وأحضر زجاجة من البيرة وضعها أمام صاحب الشيء مع قليل من الترمس، وبدأ صاحب الشيء يشرب غير مهتم بحضورهما.

- شكله هكذا مُقدِم على جريمة قتل.

قال أسعد فتململ راشد من حديث القتل الذي يتكرر اليوم. وعاد أسعد يقول:

- في الحقيقة منذ يومين وهو على هذا الحال. منذ أذيع نبأ اغتيال الممثلة إحسان.

- أنا أيضًا حزين من أجلها جدًّا.

فكَّر أسعد قليلًا ثم قال:

- أظن أنها تركت معك مظروفًا به قِصة حياتها.

تردد راشد لحظةً، ثم قال:

- لقد قالت ذلك، لكني نسيت أن آخذه منها.

- مسكينة. مَن كان يصدق أنها يمكن أن تحضر إلى برج العذراء. لقد اختفت فترة طويلة. يبدو أن حضورها إلى هنا كشف مكانها حقًّا.

أحسَّ راشد بالحزن حقًّا من أجلها.. هل يمكن أن يكون

هـذا هـو سـبب قتلهـا فعـلًا؟ هـل عليـه أن يتحمَّـل مسـئولية ذلـك باعتبـاره الـذي دعاهـا إلى بـرج العـذراء؟ قـال:

- يبدو أن حياتها كانت صعبة ومليئة بالأسرار.

- لـو كانـت تركـت لـك المظـروف، ربمـا كنـت عرفـت شـيئًا يسـاعد البوليـس عـلى التحقيـق..

لـم يـرد راشـد.. حـتى لـو وجـد شـيئًا في المظـروف فلـن يخـبر بـه أحـدًا. الأفضـل أن لا يفتـح المظـروف، بـل الأفضـل أن يتخلـص منـه...

راحـا يشربـان البـيرة في صمـتٍ، فكَّـر خلالـه راشـد في هـذه الأسـماء العجيبـة الـتي يحملونهـا. سـالم سـليمان الـذي لـم يظهـر حقيقـةً حـتى الآن ويبـدو أنـه قـد مـات أو قُتـل، راشـد رشـاد الـذي يـكاد يفقـد عقلـه، أسـعد سـعيد المريـض شـديد التعاسـة. إن أيّ مؤلـف لا يحـب الوصـول إليهـا بهـذا المعـنى، لقـد جـاءت صدفـة، ومَـن يعرفهـا يتصـور أن لهـا دلالـة ومعنى.. لقـد صـارت لهـا دلالـة حـين التقـى كلٌّ منهـم بالآخـر. فـلا يعرف أحـد أن سـالم لـم يعُـد سـالمًا غـير راشـد، ولا يعـرف تعاسـة أسـعد إلا راشـد أيضًـا، وراشـد نفسـه يبـدو فاقـد العقـل، فهـو الـذي اسـتولت غصـن عـلى أموالـه ودخـل السـجن ثـم غـادر البـلاد وانقطعـت أخبـاره.. ثـم إن الجميـع ينادونـه بسـالم. راشـد إذًا غـير موجـود، وفي كل الأحـوال فهـذه الأسـماء تتآمـر عـلى أصحابهـا!

- ما رأيك تتغدى معي اليوم؟

قال أسعد، ثم أردف:

- أعرف محلًّا يقدم أعظم نيفة في المدينة. في المنطقة الشعبية الجديدة. هي منطقة عشوائية في الحقيقة، لأن المناطق العشوائية التي تقوم على الهامش تظهر تقريبًا كل يوم، لم يعُد أحد ينشغل بإطلاق الأسماء عليها. المنطقة التي بها الدكان هي أحدث ما ظهر. أي والله...

هو لا يحب النيفة، لا يحب أكل لحم الماعز عمومًا. الماعز حيوانات مخربة إذا أطلقت على أي منطقة خضراء أجدبتها. رأى ذلك في الصحراء، ويقول البدو دائمًا ذلك، لكنهم يستمرون في تربية الماعز إلا أنه لا يحب لحمها أبدًا.

أمه كانت تقول عنه زمان أن عصبيته الزائدة لأنه رضع من لبن الماعز الذي كانت تبيعه لهم بدوية احتلت خرابة قريبة من بيتهم وربَّت فيها الماعز والشياه. على أيّ حال هو يحتاج أن يلبّي دعوة أسعد سعيد ليظهر له حُسن نواياه على الأقل، ولأن أسعد فعلًا يبدو مُقبلًا على موت أكيد..

قبل انصرافهما توقَّف راشد أمام صاحب الشيء، وقال دون قصد:

- هل كنت تحب الممثلة إحسان؟

- مَن لم يكن يحبها يا أستاذ؟

- إنني حزين لأجلها مثلك بالضبط.

قال صاحب الشيء في حزن.

- كانت تزورني كثيرًا في أحلامي. تعرف أنها يوم جاءت إلى برج العذراء لم أصدق. ظللتُ أنظر إليها وأسأل نفسي هل هذه حقًّا إحسان التي تزورني كل ليلة في المنام؟ كنت أود لو كلّمتُها..لم أستطع. تركتكم ومشيتُ. كان هذا هو السبب الوحيد لانصرافي بسرعة -أجهش بالبكاء- لم تعُد لي امرأة أنام معها، لا في اليقظة ولا في المنام يا أستاذ.

.....

مشيا وسط أزقَّة ضيقة موحِلة، بيوت من طوب عشوائيّ وصفيح. ليس هذا غريبًا عليه. إنها مشاهد قديمة رآها كثيرًا في طفولته في العشوائيات التي تحيط بمدينته الساحلية، وحول العاصمة حين أتى في شبابه باحثًا عن المجد والشهرة. ليس هناك مجال للدهشة إذًا. أدهشه فقط كثرة المطاعم التي على الأرصفة، مطاعم مكشوفة لا جدران حولها، والجو بارد لكنه مُنعش، وخلف كل مطعم غرفة هي التي فيها يتم تجهيز الطعام. مقاعد من قش وخشب قديم، ومناضد من خشب أسود خشن غير منتظم، وناس كثيرة تأكل. أطباق قذرة بها طعام ساخن تصعد منه أبخرة تبعث على الدفء حقًّا. للحظةٍ فكّر أنه لا شيء هنا يشجِّع على الأكل غير هذه الأبخرة. أمام واحد من هذه المطاعم توقَّف أسعد سعيد يقول:

- هذا أحسن مطعم يقدِّم النيفة في البلاد. لا يُضايقك مظهره.

كان هناك زحام من رجال وشباب يبدون فقراء للغاية،

وكانت هناك منضدة خالية تنتظرهما.

أقبل عليهما رجل طويل جدًّا، عالٍ مثل جمل، له ذقن رفيعة مثل جدي، يرتدي جلبابًا طويلًا واسعًا قذرًا حال لونه عليه بُقع من الأطعمة وجذاذات من شعر الماعز ودم ودهن وفي فمه الواسع أكثر من سِن ذهبي. وشَعر رأسه بعضه أصفر وأغلبه أسود مُجعَّد، وعلى أنفه حسنة ضخمة مثل زلطة سوداء تكاد تقع، وشاربه محلوق تمامًا، وفي قدميه شبشب قديم.

هذا الرجل هو النادل الذي تقدَّم يسألهما عن طلباتهما. سألهما وراح يمسح المنضدة الوسخة بفوطة هي في الأصل قطعة من الخيش صارت سوداء. كان راشد يشعر بسن مسمار في المقعد راح يخذه في فخذه، فاختفت رغبته في الهروب من المكان وفكَّر على نحو مفاجئ أنه لو أبدى هذه الرغبة لأسعد سعيد ستنطلق رصاصة من مكان ما تُرديه قتيلًا، ثم شمله إحساس عجيب بأن المسمار ليس طويلًا، بل إن سنه البارز يمكن احتماله، وأكثر من ذلك راح يتلذذ بوخذات المسمار كلما تحرك مُتململًا...

في البداية جاءت أطباق السلاطة، طحينة وطماطم بالبصل والخيار والجرجير. أطباق من الألمنيوم الرخيص مطرّمة المحيط بها نتوءات واضحة ونُقر صغيرة تدل على أنها مصنوعة في خرابات، ثم ألقى النادل بينهما بخمسة أرغفة بلدي بطريقة جعلت الرَّدة العالقة بها تطير حولها وتتناثر على المنضدة. «ما علينا. سأتحمَّل هذا كله، ولن

أعـود إلى هنـا مـرةً أخـرى، المهـم أنـني أرى أمامـي أشـياء حقيقيـة وليـس خيـالًا!» كان النـادل قادمًـا بطبقـين مـن النيفـة الموضوعـة فـوق فـرش مـن البقدونـس. قطعـة لحـم كبـيرة حقًّا لهـا رائحـة زكيـة ممـا جعـل أسـعد سـعيد يبتسـم، ثـم ألقـى النـادل بينهمـا بعـدد وافـر مـن الملاعـق والشـوك والسـكاكين الرخيصـة.

- ما رأيك؟

تساءل أسعد سعيد مبتسمًا:

- لا بأس.

- ما رأيك في طبق طبيخ؟

- لا. لا أحب الطبيخ.

سمعه النادل فقال:

- ومَـن يحـب الطبيـخ في البـلاد يـا أسـتاذ؟ لكـن مـا دام صاحبـك طلـب منـك أن تـأكل توافـق.

سكت. لـم يعلِّـق. خـاف أن يأخـذه حديـث النـادل إلى الخيال أو الجنـون. قـرر أنـه حـين يـأتي النـادل بالطبيـخ لا يرفـض ولا يـأكل أيضًـا، ثـم إن قطعـة النيفـة كبـيرة تكفيـه وزيـادة..

راح يقطـع بالشـوكة والسـكينة قطعـة صغـيرة مـا إن وضعهـا في فمـه حـتى سـمع صوتًـا مُفزعًـا لعـدد مـن القطـط تـصرخ وتمـوء. صـوت متوحِّـش سريـع وقـويّ أفزعـه بالفعـل، وأفـزع أسـعد سـعيد.

نظر فوجد عددًا من القطط اختلطت ألوانها الصفراء والسوداء والبيضاء تتصارع على قطعة من العظم وسط الزقاق. هزَّ رأسه وقطع القطعة الثانية من النيفة وما إن وضعها في فمه حتى سمع صراخًا خلفه هذه المرة. نظر لأسعد سعيد الذي قال:

- كُل ولا تهتم. القطط أكثر من الناس الآن.

ومع القطعة الثالثة ازداد الصراخ خلفه وفي وسط الزقاق. توقَّف لحظةً ورأى النادل يقف بعيدًا ينظر إليه باستنكار، فعاد إلى الأكل وهو يسأل نفسه كيف حقًّا تجوع القطط إلى هذا الحد في حيّ امتلأ بالمطاعم! لكنه سمع صراخًا من نوع آخر. صراخ آدميّ يختلط بصراخ القطط.

- لا تهتم.. قُلت لك.

قال أسعد سعيد، لكنه لم يستطع إلا أن يهتم. رأى في الزقاق القطط تتصارع الآن مع طفلين حول عدد من قطع العظم الصغيرة ألقى بها نادل أحد المطاعم المجاورة إلى الشارع. الطفلان يهوشان بالهجوم على القطط فتتراجع ثم تهاجمهما القطط فيتراجعان. كانا شبه عاريين وحافيين وعَلَتْهُما أوساخ كثيرة، كانا ولدًا وبنتًا لا يمكن التمييز بينهما إلا بالتدقيق الشديد. بدأ يشعر بالامتعاض الذي زاد وهو يرى الجالسين في المطاعم يأكلون لا يأبهون بما يدور ولا يتوقفون عن الأكل، بل إن أحدهم دخل المعركة بأن ألقى قطعة من اللحم فجرَتْ إليها القطط والطفلان، وظهر عدد من الكلاب الضالّة فجأة دخل المعركة بدوره

وارتفعت ضحكات من عدد من رواد المطاعم، وانتبه هو إلى أنه لا يرى كلابًا بالفعل، بل إن عددًا من الأطفال هو الذي ظهر فجأةً منضمًّا إلى الطفلين بشكل جعله يراهم مثل كلاب صغيرة، ثم رأى كل الذين يضحكون لهم أفواه مفتوحة بلا أسنان، لكنَّ قطتين أقبلتا من الزقاق الأيمن وطفلين من الزقاق الأيسر فألقى أحد الجرسونات بعدد من قطع العظام ليجري الجميع نحوَها ولم يتوقف بعدها ظهور الأطفال والقطط من كل الأزقة. وفيما يبدو صارت البلد أمامه كلها منقسمة إلى قطط وأطفال. قطة تجرى إلى عظمة فيضربها طفل بقدمه وينحني مُسرعًا ليتناول العظمة فتخمشه قطة أخرى تضربها طفلة فيستطيع الأول أن يضع قطعة العظمة في فمه بسرعة يُمصمِصها مبتسمًا، والطفلة تنتظره حتى إذا انتهى من المصمصة قدَّمها إليها، لتضعها بدورها في فمها وتمصمص فيها بلذَّة مُدهشة، وراح الأطفال الذين فازوا بقطع العظم يشفطون النُّخاع الذي بينها وهم يبتعدون لحظات عن المعركة، ثم إذا قدَّموا قطع العظم بعد ذلك لزملائهم جروا ليدخلوا المعركة من جديد ضد القطط. موجة إثر موجة، كانت تأتي القطط والأطفال فتوقف راشد عن الأكل تمامًا...

- لماذا لا تأكل؟

سأله أسعد سعيد، ثم أضاف:

- عندك حق. المشهد صعب ولا يمكن تحمُّله.

لم يرد، فاستمر أسعد يتحدث:

- لكن هذا يحدث هنا دائمًا، وتقريبًا في كل مكان به مطاعم شعبية.

ظلَّ راشد ساكتًا.

- اسمح لي أن أستمر في الأكل. سوف أموت بعد أيام كما تعرف..

كان راشد يعجز الآن عن التمييز بين القط والأطفال، فالجميع تحولوا أمامه إلى قطط كبيرة الحجم جدًّا، ولولا أن النادل أقبل يحمل طبقين من الطبيخ لاستمر في خياله المجنون.

وضع النادل الطبقين أمامهما، ثم راح يمسح مخاطه السائل من أنفه بكمِّ جلبابه، ويقول:

- لا مؤاخذة. واخد برد ابن متناكة. لكن الفاصوليا ممتازة.

و أشار إلى الطبقين..

أشاح راشد بوجهه عن النادل، ونزل -لا يدري لماذا- إلى أسفل بعينيه، فرأى تحت جلباب النادل شيئًا بارزًا جدًّا إلى الأمام. الرجل يبدو منتصبًا بقوة. أشاح بوجهه إلى الشارع. كانت المعركة قد انتهت وانتقلت إلى زقاق آخر تأتي منه أصواتها. رأى أمام الرصيف المقابل فتاة صغيرة تلمع ساقاها الرقيقتان تحت البنطلون الضيق الممزَّق. أشار إليها فقفزت إليه. وظهر طفل آخر، لا يدري من أين، يجري إليه مثلها. وقف الاثنان أمامه مُبتسمين، فأخرج من جيبه جنيهين أعطى واحدًا لكلٍّ منهما، ثم ناولهما طبق النيفة

والفاصوليا والخبز وطلب منهما أن يأكلا على الأرض جواره حتى يدافع عنهما إذا ظهرت القطط.

ظهر طفلان آخران يقفان على الرصيف المقابل ينظران ناحيتهما ويتلمَّظان، فأشار إليهما. أسرعا يقفزان الزقاق إليه، فحمل طبقَيْ أسعد سعيد بما تبقَّى فيهما من فاصوليا ونيفة وقدَّمهما للطفلين. نظر إليه أسعد لحظةً، ثم قال:

- نستطيع إذًا أن ننهض. نشرب شايًا في مكان آخر..

- أستطيع أن أدعوك إلى غداء آخر في مطعم جميل إذا كنت جائعًا..

- لا داعي. انسدّت نفسي فعلًا. ما كان عليَّ أن أستمر في الأكل.

ترك راشد على المنضدة مبلغًا كبيرًا لم يفكّر حتى في إحصائه. أشار للنادل الذي كان يقف بعيدًا ينظر إليهما ساخرًا، فتقدم نحوهما يسبقه ذكرُه المنتصِب في جلبابه بشكل أطول من ذي قبل....

.....

- هل تعرف أني طلَّقت زوجتي أمس؟

قال أسعد سعيد، وهما يمشيان، ردَّ راشد:

- أنا لم أعرف أنك متزوج.

- في العادة يتزوج الناس. هناك دائمًا المرأة المناسبة لكل إنسان.

- أنا آسف جدًّا. يبدو أن ظروفك صعبة أكثر مما يتوقَّع أي شخص. لكن...

لم يكمل، أراد أن يقول له كيف تفعل ذلك وأنت مُقبل على الموت. لكنه سكت، واستمر أسعد سعيد:

- لقد ساعدَتني كثيرًا في حياتي الأدبية والفنية، لكنني أنا الذي خيَّبت أملَها. لم أحقِّق شيئًا كما ترى..

قال راشد في نفسه «إذًا هو مُشفق عليها جدًّا، وربما طلَّقها حتى لا تصبح أرملة. ثم فكَّر أن وضع الأرملة الاجتماعي دائمًا أفضل من وضع المُطلَّقة. ابتسم. متى كانت الأمور واضحة أمامه؟

- لاحظت في الفترة الأخيرة أنني كلما ضاجعتها نامت تحتي. أي والله. وتشخر أيضًا بصوتٍ عالٍ...

قاوم راشد الضحك الذي راح يهز جسده، وقال:

- عجيب!

- ليس عجيبًا. جاري أيضًا طلَّق زوجته الأسبوع الماضي للسبب نفسه، والذي فوقي في السَّكن والذي تحتي. ذلك يحدث تقريبًا في كل البيوت من زمان. الشارع، المدينة كلها الآن إما مُطلّقين أو ذاهبين إلى الطلاق. كل النساء تنام أثناء الجِماع وتشخر. المدينة أصابها فيروس غريب.

ثم ضحك أسعد سعيد بصوتٍ عالٍ لا يتناسب مع صِحته المعلولة، وقال:

- لقد ذهبت صباح اليوم إلى عملي متأخرًا كالعادة. إنهم يعتبرونني شخصًا ممسوسًا بالفن ولا يسألونني عن شيء. ذهبت فوجدت رئيس مجلس الإدارة ميتًا في مكتبه والجميع يبكون. كانت الموظفات يبكينه ثم يتهامسن عن طريقة موته. مات وهو يضاجع سكرتيرته. أكثر من واحدة أقسمت أنها رأت آثار الجِماع على وجه السكرتيرة. وسمعت موظفة تقول لزميلتها وهي تبكي «شفتي يا أختي لباسها تحت البنطلون ملفوت إزاي؟ لبسته بسرعة» كانت تقصد السكرتيرة طبعًا. وقالت لها الأخرى وهي تبكي بحرقة «الله يكون في عونها. الواحدة تبقى تحت الراجل وبعدين يموت فوقها حاجة صعب قوي. دي يا أختي خضّة كبيرة وحاجة ما تتنسيشي».

وسكت لحظاتٍ هزَّ فيها رأسه مندهشًا مما يقول، ثم أضاف:

- مثلما مات أبو غصن في أمريكا.

ثم ضحك وقال:

- بيني وبينك السكرتيرة كانت كما العدّاد، رجل كل خمس دقائق.

«هذا رجل مُقبل على الجنون وليس على الموت». هكذا فكَّر راشد، بينما عاد أسعد سعيد يقول:

- ستة ملايين حالة طلاق حتى الآن. تصور أنت ستة ملايين رجل ومثلهم من النساء كانوا يدخلون في بعضهم

البعض ثم انفصلوا وكرهوا بعضهم. هذه قدرات عجيبة للشعب تظهر هذه الأيام. الكارثة أن مسألة النوم والشخير الحالية سوف ترتفع بالعدد إلى عشرة ملايين وأكثر.

- ربنا يستر.

قال راشد رشاد، مُشفقًا على أسعد سعيد، الذي استمر يتكلم:

- الجحيم أهون من امرأة تنام وتشخر تحتك. تضاجع وسادة أفضل.

- فعلًا والله أفضل!

قال راشد رشاد ذلك، بدلًا من أن يقول يكفي هذا اليوم، فقال أسعد سعيد:

- لاحظ أنني أيضًا لم أضاجعها كثيرًا بسبب مرضي، لكن حتى في المرات القليلة كانت تنام وتشخر.

أراد أن يحول الموضوع، فتساءل:

- لماذا كان النادل منتصبًا طول الوقت؟

لا يعرف كيف ولماذا قال ذلك. ضحك أسعد سعيد بقوة كبيرة جدًّا. كيف يضحك هكذا رغم الهزال والمرض!

- هل رأيته؟

- طبعًا، ولذلك أسألك.

ابتسم أسعد سعيد، وتحدث بهدوء:

- يا صديقي الكاتب الكبير سالم سليمان يبدو أن معلوماتك عن البلاد ضعيفة جدًّا. هذا رجل يعلن عن بضاعته. لقد نشر إعلانًا مدفوعًا في إحدى الصحف، إعلانًا عن بضاعته هذه، لكنه تعرَّض لمُساءلة وكاد يدخل السجن بسبب ذلك. لقد تم إغلاق الصحيفة من قِبل الدولة. صاحب الصحيفة هو صاحب المطعم الآن. أنت لا تصدقني. مؤكَّد. لكن في الزيارة القادمة سأقدمه لك لتتأكد بنفسك. هذا طبعًا إذا عشتُ لذلك اليوم.

وارتعشت شفتاه وبدأ جسده يهتز. ران عليهما صمت. كيف حقًّا مشيا هذه المسافة الطويلة يتكلمان! كان واضحًا أنهما سيفترقان.

وهو يقترب من موقف الحافلات صعدت شمسٌ شتويةٌ بديعةٌ فجأةً، واتسعت الدنيا حوله فغير رأيه وترك نفسه يمشي على شاطئ النهر. رأى شبابًا كثيرًا يلهون على الشاطئ، وظهرت فوق النهر المراكب الشراعية الصغيرة فوقها فِتيان وفتيات يغنون ويرقصون حول أصوات المغنين، التي ترتفع من أجهزة التسجيل. هذه دنيا حقيقية افتقدها كثيرًا منذ عاد من الخارج. رغبته في الانتقام سوَّدت الدنيا في عينيه. لقاءاته في البار سوَّدتها أكثر. الفتيات اللاتي يجئن إلى شقته أظلمنها تمامًا. لقد ارتكب حقًّا الكثير من الخطايا. إنه حقًّا واحد ينتمي لجماعة سوداوية المزاج، ميلانخوليين يسمون أنفسهم بالأدباء والفنانين. عربة بوليس بوكس صغيرة

تسمَّرت قريبًا منه وقفز منها شرطيان أمسكا بطفلين يبيعان المناديل الورقية وقذفا بهما داخلها وأسرعت.

«أوليفر تويست» رواية عظيمة كتبها «ديكنز» عن أيتام إنجلترا زمان. «جعلوني مُجرمًا» فيلم مصري أخرجه «عاطف سالم» عن أيتام مصر زمان أيضًا. جعلوني مُجرمًا تمصير للرواية الإنجليزية إلى حدٍّ ما. الراوية الإنجليزية والفيلم المصري.. الفيلم المصري والرواية الإنجليزية. لم تُعطه العربة البوكس الثانية الفرصة لإكمال الجملة التي يريد أن يقولها، نزل منها مخبرون راحوا يجرون وراء الأطفال. جرى مع الأطفال والشباب. بنات وصبيان. هل يجري أيضًا! لماذا حقًّا لم يركب الحافلة؟ لماذا يخاف ركوب سيارته حتى الآن؟ لكنه ظل يمشي بهدوء.

مشى كثيرًا تحت الشمس الطيبة التي لم تزل تُسبغ على الكون نعمها البيضاء. لو كان سالم سليمان هو الذي يكتب الآن لقال أن السُّحب السوداء تدافعت فوق المدينة البائسة، ولجعل أصوات الرعد تملأ الفضاء والمطر ينهمر. إنه لا يعرف من الذي يكتب قِصته الآن، ولا مَن يكتب قصة هذه المدينة. لقد رأيتك مع سالم كما قلت لك أيها الكاتب. رأيت كيف عاشرتما فتاة واحدة في وقت واحد من الناحيتين. إنني أمشي بين الضوء الباهر رغمًا عنك، والهواء المنعش القادم من النهر رغمًا عنك، مسكين لم يكن يعرف أنه يمشي داخل كتاب وأنه قطع كثيرًا من صفحاته. ربما لو أدرك أن النهاية اقتربت انتحر، ربما سافر. لكنه في كل الأحوال لن يُفلت من يدي. المؤلفون الخبثاء يستطيعون

مُلاحقة الناس حتى وهُم خارج الأوطان! راشد رشاد أو سالم سليمان، لا فرق. كلاهما يُصيب أي مؤلف بالجنون!

ظهرت من بعيد عربات حمّص الشام الملوّنة على جوانبها أرفف فوقها أكواب زجاجية ملوّنة أيضًا، وفي أعلاها أربعة أعلام مختلفة ألوانها، وعلى المقاعد البلاستيك فوق الرصيف عشّاق فقراء، وبدأ المغرب يتسلل إلى الدنيا، وليس لأن المؤلف يريد إسدال الستار على الأحداث. ولأنه مشتاق إلى كوب حمّص توقف أمام البائع العجوز الذي كان جواره طفل صغير جميل. بسرعة قدَّم إليه الطفل كرسيًّا جلس عليه. لا يعرف لماذا أولى ظهره إلى النهر وراح يتأمل العربة الجميلة والبائع العجوز النشط الذي تقدَّم نحوَه حاملًا صينية صغيرة بيضاء من المعدن فوقها كوب حمَّص وقدح صغير من الشطَّة والتوابل. وهو يمد يده يُمسك بالكوب لاحظ أن شيئًا يتقدَّم من جلباب العجوز الذي كان نظيفًا جدًّا، على عكس جلباب نادل المطعم. أغمض عينيه غير مصدّق. هل يتأكد الآن أن ما رآه من قبل، ويراه، خيال كله! لكن البائع قال:

- لا تشغل بالك.

نظر إليه مرتبكًا غير قادر على الكلام، فقال العجوز النشط:

- رغم أن النسوان الآن تنام وتشخر تحت الرجال.

ثم تركه وعاد إلى العربة وهتف وهو يصفّق للطفل الصغير.

- استعد يالـه -ثـم راح يرقـص- بكـرة مـن ده بقرشـين. بكـرة مـن ده بقرشـين.. بـدولارات يالـه.

راح الطفـل يبتسـم، وراح هـو إلى منطقـة الحـيرة وعـدم الفهـم العميـق، ولمـا رآه العجـوز كذلـك عـاد إليـه وقـد زاد انتصابـه جـدًّا وقـال:

- أصـل بكـرة إن شـاء اللـه سـنبيع كليـة مـن هـذا الولـد. تعـال.. تعـال.. بُـص!

أخـذه مـن يـده يوقفـه فوقـف. أداره ناحيـة النهـر وتقـدم بـه إلى السـور القصـير الـذي يحـدُّه عـن الرصيـف، وقـال:

- انظر حتى تصدِّق..

رأى عـشرات الأطفـال جالسـين مثـل ضفـادع صغـيرة في أوضـاع القرفصـاء.

وقال العجوز النشط:

- الشَّـط سريـر والسَّـما غطـا. الطفـل منهـم بعـد أن يبيـع لـه كليـة أو دراع أو حـتى عـين يجـد السريـر الحقيقـي والغطـاء الصـوف. أفضـل مـن أن يصبحـوا إرهابيـين أو لا مؤاخـذة خـولات ومجرمـين.

وقـف مذهـولًا إلى حـدِّ الصَّدمـة واسـتمر العجـوز النشـط يصفِّـق ويضحـك:

- كليـة أو عـين أو إصبـع والدنيـا تحلـو والعيـال تفـرح وأنـا أفـرح والمريـض يفـرح -وبعـد لحظـة صمـت- لا تظـن أنهـم بـلا

أهل، أقلّهم كذلك، أكثرهم أهلهم هم الذين أحضروهم إليَّ واترجوني أقبلهم. يا سلام. إنهم فقراء حقًّا، لكن ربك جعلهم سبب سعادة للأغنياء. طبعًا. من يستطيع الآن أن يشتري أي عضو بشري -وهمس- ما عدا هذا العضو «وأشار إلى أسفل» هذا مجانًا، وبالمناسبة أنا لي أخ أصغر مني لكن عنده عضو مُعتبر. تقول عضو برلماني. أي والله. نادل مهم جدًّا في مطعم نيفة جديد ومشهور تحب أوصفه لك ربما تأكل هناك. وتتفرج عليه بالمرة. أكلمه لك على المحمول إذا كنت مستعجل؟ على الفرجة أعني..

في الوقت الذي شملته رغبة أن يسدد لكمةً للرجل وجد نفسه يقول في استسلام:

- أعرفه. أكلت عنده اليوم.

- رأيته بنفسك؟

- أجل.

- رأيت كيف هو منتصب؟

- أجل..

- رغم أنه أصغر مني وبصِحته لكن ما عندي أكبر، لذلك هو مخاصمني دائمًا. هاهاهاي..

هكذا عاد الرجل إلى عربته ضاحكًا تاركًا راشد ينظر إلى الأطفال، لكنه لم يستطع النظر أكثر من ذلك. عاد إلى مقعده وجلس يكمل شرب الحمّص صامتًا.

دفع جنيهًا للرجل ومشى. تاقت نفسه أن يرى فرح. فيما يبدو انشغل عنه كثيرًا، ولعلَّه حقًّا مع البنت التي أرادت أن تشتغل مومس. لو ظهر فرح فسيكون هذا دليل على أن كل ما رآه اليوم خيال محض. أن يكون مريضًا خير من أن يكون سويًّا. يا رب يسِّر وأعِن وأظهِر لي الآن فرح.

لكن فرح لم يظهر. في الحقيقة كان يمشي أمامه يسبقه إلى بيته مُحاطًا بعدد كبير من الأيور التي تجري على عجلاتها سعيدةً حولَه. كان فرح خبيثًا يريد أن يتمكن منه الحزن فأحاط نفسه بغلالة من العماء، لكنه أيضًا كان قد قرر أن يظهر له في البيت قبل أن يتمكن منه الحزن ويقتله. كان في الحقيقة قد قرر أن يمارس معه قليلًا من اللعب، ولم يكن يدري أن راشد رشاد كان يبتسم خلفه ساخرًا، ليس لأنه يراه، لكن لأنه أدرك فعلًا وعن يقين أن ما رآه اليوم حتى لو كان خيالًا فهو ليس أعمق مما رآه من قبل من خيالات.

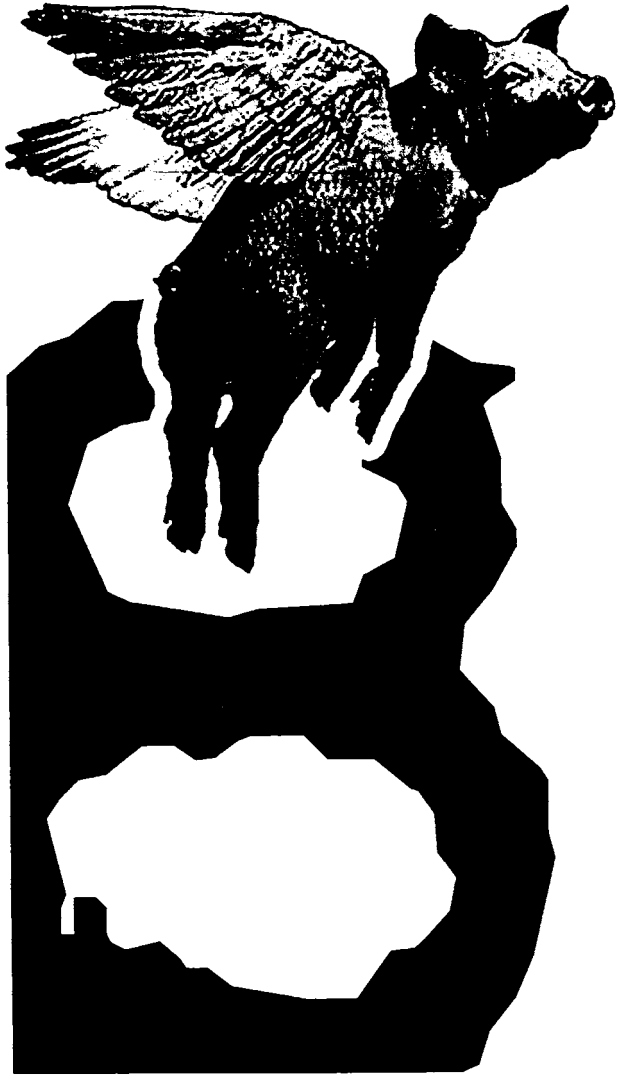

- 8 -

تأكَّد له أن عقله يتشقَّق، فهو يقف في الصالة مُمسكًا بالدعوة التي كانت قد أرسلتها إليه السفارة الأجنبية ويقرأ تاريخها بعد أسبوع من الآن. هو إذًا لم يذهب من قبل ولم يحدث أي شيء مما كتبه. متى إذًا رأى الممثلة إحسان؟ ومَن التي ضاجعها؟ ثم هذا المظروف الذي أعطته له إحسان في برج العذراء. حضور إحسان نفسها إلى برج العذراء. لا يمكن أن يكون ذلك بسبب نشر الصحف لخبر وجوده..

كانت وداد في الغرفة الصغيرة عارية، وكانت أرضية الصالة مفروشة بالخطابات. إنها رسائل القرَّاء التي بدأت تصله بكثافة ولا يعتني بها. هتفت:

- خلاص.. أنا قلقت.

- انتظري، أنتِ السبب في كل هذه المصائب!

كان يقصد الرسائل. نهضت وأقبلت عليه عاريةً. رأى عانتها

صغـيرة ومهذبـة. لقـد هذبتهـا بحيـث تكـون مثـل صليـب معقـوف. صرخ مُشـيرًا إلى العانـة:

- ما هذا؟

- حتى تهزم النازية نفسها.

- نازية! هل عادت؟

وضحك بشراسةٍ، ثم أضاف:

- ثم إنني لم أعُد قادرًا.

ضحكت. صفَّقت.

وكان فـرح قـد دخـل مـن البـاب المغلـق ووقـف في الركـن يتابعهمـا، وفي كل يـد مـن يديـه أيـر يلعـب بـه.

- اسـمعي. اطلـبي بـرج العـذراء بالتليفـون وكلمـي صديقنـا صاحـب الـشيء واتركيـني أنـا أقـرأ رسـالة الممثلـة إحسـان..

- يا لهوي. صاحب الشيء هذا لا يُحتَمَل!

ضحك.. قال:

- طيب ادخلي نامي وفرح يقوم بالواجب.

قالت بدهشة:

- فرح. فرح من؟ الذي أحيانًا تكلِّمه؟

- بالضبط.

بانت عليها دهشة شديدة. قالت:

- سلامة عقلك يا أستاذ.

- صدقيني وادخلي نامي. أنا متأكد أنه سيقوم باللازم..

كان يرى السعادة تتقافز على وجه فرح. قالت:

- ذنبي في رقبتك إذًا.

وتركته ودخلت إلى الغرفة. أشار هو إلى فرح الذي بسرعة ألقى بالأيرين إلى الأرض ودخل مُسرعًا إليها.

أخرج هو مظروف إحسان من درج مكتبه، وجلس على المقعد ليقرأ.

.....

لم يفُض المظروف، ولم يقرأ الرسالة. صوت وداد كان قد علا ويصل إليه غنجها وتهتُّكها. إن فرح السعيد يفعل فيها الآن بقوة. أما آن له أن يفكر جديًّا في فرح. هل هو كائن أثيري حقًّا اخترعه خياله أم كائن حقيقي له قدرات خارقة؟ وإذا كان أثيريًّا فإلى متى سيظل يمشي معه أو يظهر له؟ ولماذا يظهر حينًا ويختفي أحيانًا؟ وإذا كان كائنًا حقيقيًّا فكيف يخرج ويدخل من الأبواب والنوافذ المغلقة. وسرى ضوء كالشهاب أمام عينيه، ضوء مرَّ برأسه خارجًا منها أمامه وأدرك أنه إن لم يكن مجنونًا فهو مُقبل على جنون حقيقي.

ترك الرسالة تسقط من يديه وترك المقعد إلى الأرض مرتكزًا عليها بركبتيه وأخذ يمسك بالرسائل الكثيرة مختلفة الألوان والأحجام التي وصلت إليه في الأيام السابقة. ينظر

إلى الرسائل بجِدَّة ويزمّ شفتيه. هذه حقائق ماثلة بين يديه وليست أكاذيب. لا يكفي أي صحيفة أن يصلها خبر وصول أحد كتّابها لتنشر ذلك وتطلب من القرّاء مُراسلته. هل يذهب إلى صحيفته القديمة ويباشر العمل ولا يدري؟ لكنه لم يعمل من قبل في أيّ صحيفة. إذًا هو يذهب إلى صحيفة سالم، لكن كيف أن أحدًا لم ينتبه إليه؟

ترك الرسائل ووقف أمام المرآة. هذا وجهي يا ربي وليس وجه سالم فكيف تجري الأمور بي وإلامَ تنتهي؟

ورأى وداد تخرج من الغرفة مُمسكةً بيد فرح في يدها. كانت السعادة طافحة على وجه فرح وبدا وجه وداد شديد التورُّد من أثر اللذة وشديد الامتنان. كان كلاهما، هي وفرح، عاريين..

- من أين أتيت بهذا الإنسان الجميل؟

سألته وهي تشير إلى فرح الذي بدوره أفلت يده بهدوء منها وخرج أمامه من الباب المُغلق وهو يحمل ملابسه في يده..

- لماذا لا ترد عليّ؟

انتبه إلى سؤالها. انتبه إلى أن صوت وداد قد تغيَّر تمامًا.

- أين ذهب صوتك؟

اندهشت وتساءلت:

- هل لا تسمعني؟

- أسمعك. لكنك تقلّدين صوتي. لماذا؟

ابتسمت مندهشةً أكثر. قالت:

- هذا صوتي.

ثم بدا أنها اندهشت بشدة. لقد أدركت أن نغمات صوتها قد تغيَّرت حقًّا. لكنها بسرعة ضحكت وصفقت، وراحت ترقص في الصالة.

- أنت مجنونة؟

- أنا فعلًا مجنونة. أو سوف أُجَنّ الآن. لقد تغير صوتي بعد أن نام فرح معي. صار صوتك. أليس كذلك؟

وقف متحيِّرًا.. لم يرد.

- إذًا فرح نام معك قبلي ونقل إليك هذا الصوت من قبل. أجل صوتك ليس مثل صوت سالم سليمان، شكلك لم يتغير لكن الصوت تغير كثيرًا! أجل. أنا منذ رأيتك أقول كيف تغير صوت الأستاذ سالم وصار أنثويًّا هكذا. هيه. هيه. فرح نام معاك يا أستاذ. فرح نام معاك قبلي..

وعادت تصفّق وتضحك وترقص وهو يقف مندهشًا، ثم مبتسمًا، ثم اكفهرَّ وجهه وصرخ فيها:

- اخرجي برَّا يا بنت الكلب. لا يوجد شيء اسمه فرح.

وهجم عليها فتراجعت مذعورةً. جرت من أمامه إلى الغرفة وأغلقت الباب في وجهه بسرعة جعلته يصطدم به، ولدهشته لم يستطع فتح الباب. تفصَّد العرق على كل

جسده واشتعلت فيه النار فعاد إلى مقعده يجلس مُنهارًا يائسًا.

كثيرًا ما أمضى الليل سهران مع سالم في الصحراء. كان يسهر معه وسط الجبال الخضراء! ولكن سالم لم يكن أبدًا لوطيًّا ولا هو كان شاذًّا!

وسمع نهنهةً صادرة من خلف باب الغرفة , إنها تبكي وداد الجميلة. ما الذي فعله معها حقًّا؟ ما الذي يحدث معه منذ جاء إلى هذه البلاد؟ وقبل أن ينهض يطلب منها أن تصفح عنه وتفتح الباب سمع صوت الباب وهو ينفتح ورآها تقف أمامه حزينةً بائسةً وقد ارتدت ملابسها. قالت في انكسار عميق:

- لا تغضب مني. أنا أيضًا شاذة.. أنت تعرف. وإذا أحببت أن تنام معي الآن فلن أتضايق..

واقتربت منه بحيث صارت رأسه على بطنها وراحت تضمها إليها وتعبث في شعره بحنان. كان الطريق قد انفتح لدموعه دون بكاء..

.....

- أسعد سعيد مصمم على الانتحار.

- مَن هو أسعد سعيد؟

- إلى هذا الحد نسيت؟

كانت قد أمضت الليل عنده، ظل طول الليل يحاول أن يصالحها فباشرها أكثر من مرة من الأمام.. كلاهما كان يثبت للآخر أنه غير شاذ. وحين كلَّمته الآن، مع أول ضوء في الصباح، كان هو يفكر في فرح وكيف أنه لا بُد من قتله. لا يكفي أن يكون طبيعيًّا في الجنس كي يكون طبيعيًّا في الحياة. لكن هل هناك من سبيل إلى ذلك! ثم ماذا فعل فرح المسكين حتى يفكر في قتله حقيقةً. إنه كائن جميل يتولى عنه الانتقام من المدينة، ويضحك دائمًا أمامه في أوقات عجزه وأوقات انتصاره أيضًا. وهو مجرد طفل يلهو، فكثيرًا ما ينزل جاريًا إلى الشارع ويعود وفي يديه أيرين يقف بهما أمامه يضغط على كل منهما فيستطيل حتى إذا كاد ينقسم إلى قسمين وتألم وبكى رغاء أبيض ينثال على محيطه ألقى به من النافذة لتدهسه السيارات المُسرعة.

- هل حقًّا نسيت أسعد كاتب السيناريو مريض السرطان الذي طلَّق زوجته منذ أيام؟

- أبدًا لم أنسه.

- هل تدري أنه خطبني؟

- خبر سارّ.

- أنا الذي خطبته في الحقيقة. أردت أن أهوّن عليه الأيام الباقية من حياته. مسكين لم يعد قادرًا على أي شيء.

سكتت قليلًا، ثم أردفت:

- هل تدري أني جئت أمس لأخبرك أننا سنذهب به

اليـوم إلى مركـز عـلاج السرطـان؟ تعـال معنـا.

جذبتـه مـن ذراعـه فانصـاع لهـا، ليـس لأنـه فعـلًا قـد اسـترد عافيتـه، ولا جـزءًا منهـا، لكـن لأنـه رآهـا بحـق امـرأة جميلـة. لقـد تلاشـت فكرتـه القديمـة عـن الانتقـام، وزالـت رغبتـه في قتـل أسـعد سـعيد. إنـه يحتـاج إلى امـرأة حقيقيـة تأخـذ بيـده في هـذه البـلاد، وحـتى يـأتي ذلـك اليـوم لا مفـرَّ منهـا هـذه الفتـاة.

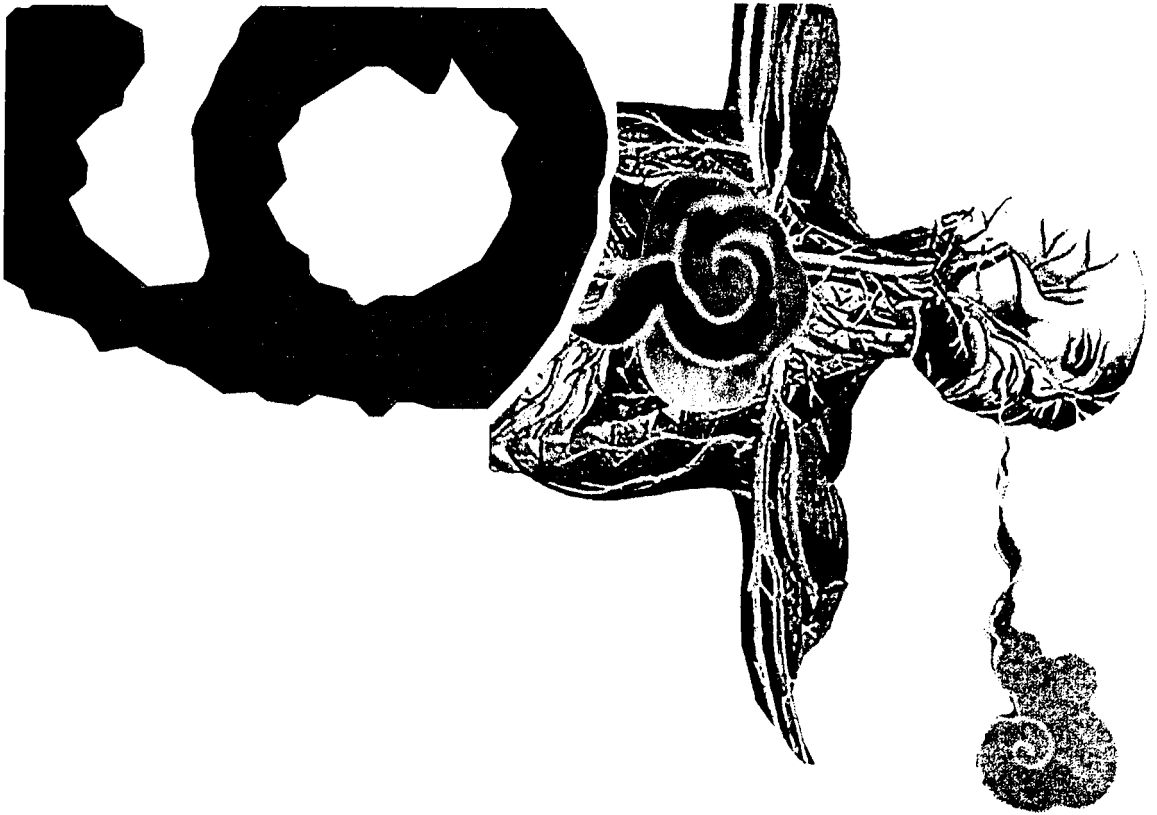

- 9 -

الوقت ضحى. أسعد يقف أمام البار الذي لم يفتح أبوابه بعد. ما إن ظهر راشد وداد حتى انفتحت أبواب البار من الداخل. لم ينتبه راشد إلى ترحيب أسعد بهما.

- النادل نائم جوًّا البار ابن الكلب..

قالت وداد ذلك فابتسم أسعد، وابتسم هو. كانت رائحة الكحول نافذة في المكان. وضح لهم أن النادل لم ينظف المحل، ترك كثيرًا من الزجاجات المفتوحة على المناضد وكثيرًا من الكؤوس بثمالاتها.

- هذه دورة مياه وليست بارًا.

قال أسعد، فابتسمت الفتاة، ثم عاد يقول:

- لقد بثَّت فيَّ الأمل، خطبتني وتريد علاجي وأنا أعرف أني سأموت إن لم يكن غدًا فبعد غد... إنها لعبة جميلة..

قال راشد:

- لكن قد ينفع العلاج.

صفَّقت وقالت:

- الحمد لله.. الأستاذ في صفّي.

أضاف هو:

- كما أن العلاج إذا لم يُفِد سيساعدك على أن تموت بلا ألم.

هتفت لأسعد وقالت:

- شفت؟ الموت بدون ألم. أهم حاجة الآن..

ابتسم أسعد ساخرًا. ووضع النادل أمامهم ثلاث زجاجات من البيرة وقال:

- أليس الوقت مُبكرًا على السُّكر؟

نظروا إليه، وقال أسعد:

- نادل وطبيب.. مع أنه يصطاد العيال بالليل في البار ابن الجزمة.

وانفتح الباب عن زبون آخر. كان مشهده مُريبًا جدًّا. رفيع نحيل يرتدي البنطلون الجينز لصاحب الشيء والبلوفر القديم لصاحب الشيء أيضًا لكن كان وجهه ورأسه ملفوفين بالشاش باستثناء عينيه وشفتيه، كذلك كانت ذراعاه مشدودتين إلى عنقه ملفوفتين بالجبس والشاش، وكان حافيًا. نظروا إليه صامتين من أثر الدهشة. ماذا يفعل شخص على هذا النحو في البار وفي وقت مبكر كهذا؟

استطاع هذا الشخص أن يجلس وذراعاه على وضعهما. تألم قليلًا وهو يجلس وراح ينظر إليهم من بين الشاش. كان واضحًا أنه يبكي.. هتف النادل:

- رحت المديرية يا فالح؟

اندفع الشخص المصاب في البكاء. لم يكن يستطيع الاهتزاز. تألم أكثر من مرة، وصار في وضع صعب جدًّا. لا يستطيع أن يوقف البكاء ولا يستطيع أن يستمر. بصعوبة سيطر على اهتزازات جسده، وغزارة دموعه تجاوزت الشاش ونزلت أمامهم..

- أنتِ السبب.

قال وهو ينظر إلى وداد.. عرفته. ضحكت ثم هتفت:

- أنت رحت يا رفعت!

قال بصوت خفيض جدًّا:

- رحت.. وهذه هي النتيجة.

قالت بدهشة:

- أنا كنت أمزح. أنت صدقت؟ يا لهوي، أنت اتبهدلت خالص، يا حبيبي.

وقامت لتجلس جواره. أرادت أن تحيطه بذراعيها.. هتف متألمًا:

- استنّي. ابعدي ذراعك عني..

لكنها استمرت تضحك. قال أسعد:

- ماذا يحدث؟ ضحّكينا معك.

صفقت بيديها في استغراب. وقال النادل من بعيد:

- راح يا سيدي مديرية الأمن يقول لهم أن عنده حلًّا لمشكلة الأيور التي تمشي في شوارع البلد. خطيبتك قالت له لو رحت وأريتَهم ما عندك سيستخدمونه ضد كل الأيور الصغيرة التي صارت تمشي على الأرصفة مع الناس «ثم بعد لحظة» أنا لا أعرف لماذا لم أر أي شيء من التي يتكلم عنها الناس. حاجة تلخبط.

ضحك راشد رشاد بقوة. استرد عافيته بحق. بدأ يتذكر. يا إلهي. لم تكن الأيام السابقة إلا لعبة، كريهة كانت لكنها لم تزد عن كونها لعبة. إنه يذكر كل شيء الآن ويشعر أنه أقوى من كل شيء. لن يترك أبدًا هذه المدينة، ولن ييأس فيها. قال لصاحب الشيء:

- احكِ لنا الله يخليك. ماذا حدث بالضبط؟

هز رأسه فتألم، عاد وثبتها وراح ينظر إلى الأمام ويتكلم:

- رحت المديرية بدري. قلت لهم أنا عندي حل لمشكلة الأشياء التي تعاني منها البلد. أنا مولود بشيء عجيب ضخم جدًّا، يمشي على الأرض، يستطيع أن يقضي على كل الأشياء. لو تركتوني في كل شارع يوم انتهت المشكلة. المهم أن تمنعوا المرور في الشارع حتى أنتهي لأن الأشياء يمكن أن تأتي من الشوارع الأخرى.

صاروا يضحكون بصخب ويصفقون ويدبدبون بأرجلهم.

- وبعدين؟

هتف راشد سعيدًا جدًّا. تمنَّى الآن أن يحضر فرح ليقتله أمامهم. ليقول له أنه ليس سالم سليمان وأنه راشد رشاد، وأنه قتل سالم سليمان لأنه أراد أن يقتله، وأنه ألقى به من فوق الكوبري المعلَّق بين الجبال الخضراء، وأنه خلَّص الدنيا من شرّه الذي لا يعرفه أحد. الذي نجح في إخفائه عن كل البشر والذي لو حكى لهم عنه لاحتاج إلى مجلدات. ثم اندهش من نفسه كيف يفكر من جديد في قتل فرح. لكن صاحب الشيء استمر يتكلم:

نظروا لبعضهم قليلًا ثم قالوا لي «أرنا بضاعتك».. فتحت البنطلون وقلت جاءتني أكبر فرصة للشهرة، لكنه خذلني ولم يتحرك من مكانه، وهذه هي النتيجة..

وأشار بلسانه إلى وجهه ورأسه فاندفعوا في الضحك الصاخب مرةً أخرى، وطلب راشد أن يكون الشرب كله على حسابه، لكن وداد قالت:

- خلّي الشرب الكثير بالليل. نشرب في صحة أسعد لما نروح المستشفى ونرجع. أنا كلمت مدير المستشفى. قلت له أني صحفية وسأحضر ومعي المريض وسالم بك سليمان. حدَّد لي موعدًا الساعة الواحدة ظهرًا. يعني بعد نصف ساعة.

ووقفت. لم يكن أمام راشد وأسعد مفر من القيام..

- قف يا حيوان أنت وهو. واحد واحد يا أولاد الكلب..

باب المعهد الحديدي العريض كان مفتوحًا عن آخره. رجلان ضخمان كانا يقفان على الناحيتين، عشرات السيارات كانت واقفة حول المعهد بشكل عطَّل سيولة المرور في الشوارع المحيطة به. عشرات التاكسيات تقف تلقي بحمولتها من المرضى والمصاحبين لهم وتختفي في لحظات. وكانت هذه أول مرة يرى فيها راشد ذلك. كان يسمع كثيرًا عن المكان لكنه لم يفكر أن يقترب منه يومًا.

كان الذي يشتم الناس هما رجلا الأمن. فجأة رأى راشد وأسعد وداد تتعلق بيديها تخنق أحد الرجلين الذي كان ضخمًا جدًّا بالنسبة لها وتصرخ فيه:

- من هم دول أولاد الكلب يا ابن ستين ديك كلب؟ هؤلاء مرضى ربنا يمرض أمك، وإحنا كتَّاب وصحفيين يا دولة وسخة معرصة..

في لحظة اجتمع عدد كبير من رجال الأمن، كان من بينهم شخص صغير الحجم جدًّا، لكنه يحمل وجهًا عجوزًا للغاية، ويبتسم. المدهش أن ابتسامته كانت طفولية. تعطل دخول الناس فتكوموا أمام الباب بشكل ينذر بالخطر. كان راشد قد لاحظ من قبل أن سيارات البيجو الواسعة القديمة تأتي كثيرًا وتتوقف فينزل من كل منها عدد كبير من الفلاحين، رجال وسيدات وأطفال، يكادون لا ينتهون، ولا يصدق أبدًا أن العربة يمكن أن تحمل كل هذا العدد، ثم في النهاية ينزل المريض، خيالًا ناحلًا أصلع زائغ العينين.

لماذا حقًّا يأتي كل هؤلاء الناس.. لا بُد أنهم يعتبرون الأمر فُسحة من القرية إلى العاصمة ليس أكثر، فالمريض ميت لا محالة. لكن هذا لا يبرر ثورة رجال الأمن على هذا النحو ولا شتائمهم المقذعة، لذلك صرخ فيهم حين تجمعوا حول وداد:

- أنا سالم سليمان أكبر كاتب في مصر أريد أن أقابل مدير هذا المستشفى فورًا وإلا تسببتم في نقله. بشرفي لو كتبت في الصحيفة عن هذه الفوضى لدخلتم السجن جميعًا.

توقفوا عن الكلام الكثير الذي كان ينطلق منهم في وقت واحد وتباعدوا. بدوا وكأنهم يريدون أن يتأكدوا ما إذا كان هذا الرجل هو سالم سليمان حقًّا أم لا.

للحظة أحس بالخوف. هنا والآن قد ينكشف سرّه. لكن رجال الأمن أشاروا إليه بالدخول هو وأسعد ووداد واعتذروا لهم.

قبل أن يصل إلى مكتب المدير كانت الاتصالات قد جرت لذلك وجدوه يقف في انتظارهم على باب مكتبه بنفسه. صرخت وداد:

- قبل أي كلام نريد أن تحاسب رجال الأمن على هذا السب العلني في المرضى ومن يصحبونهم.

قال المدير بهدوء:

- حاضر يا مدام. المهم الآن نعرف طلباتكم..

استمع إليهم، إلى ما يقاسي منه أسعد، إلى تاريخ المرض،

بدا حزينًا لأن أسعد لم يأتِ من قبل، فالسرطان درجات، وسهل علاجه حين يكون في الدرجة الأولى أو الثانية، لكنه إذا دخل الدرجة الثالثة أو الرابعة فالموت لا محالة. المهم الآن إجراء الفحوص.. ثم قال:

- ستشربون القهوة عندي، حتى أجهز لكم كل شيء. وسأعطيكم كارتًا خاصًّا للدخول من باب الأطباء بعيدًا عن باب الجمهور المزدحم.

ثم ضغط على زر جرس قريب فحضر طبيب شاب كلَّمه بإنجليزية مُعقدة، وكان قد ضغط قبل ذلك على زر جرس آخر فدخل فرّاش طلب منه القهوة. وهم يشربون القهوة قال المدير متألِّمًا

- هذا المعهد يعيش على تبرعات أهل الخير. المرضى الآن صاروا أكثر من مرضى الأنفلونزا. الأطباء يعيشون على رواتب قليلة. الأطباء الشباب بالذات. لكنهم يحصلون على خبرة كبيرة لا تتوفر لهم في أوروبا. إنهم مُنهكون جدًّا قد يمضي الواحد منهم أسبوعًا كاملًا بلا نوم، ثم إن المرضى يموتون مثل الحشرات، وهذا مؤلم جدًّا، والزوار يحضرون معهم مأكولات ومشروبات ويتركون وراءهم مخلفات لو رأيتم حجمها بعد أن يجمعها عمال القمامة لأصابكم الجنون.

وقال الطبيب الشاب:

- اتركوا لي الأستاذ أسعد وانتظروا في استراحة الدور الأول جوار قسم الكوبالت..

.....

- أين أسعد؟

تساءل راشد فجأة. كانت ساعة قد مضت وهو ووداد جالسان في الاستراحة مع الصمت، فالمرضى الجالسون في انتظار دورهم لا يتكلمون والمصاحبون لهم أيضًا، الفارق الوحيد أن المرضى لا يتململون، بينما مرافقوهم يبدو عليهم القلق. المرضى لا يأبهون لمرور الوقت، فيما يبدو صارت لهم أفلاكهم الخاصة التي يدورون فيها خارج دائرة الزمن.

كان راشد قد فكر للحظات في هذا الصمت. فكر أن يكتبه. إنه موضوع يستحق الكتابة. الإنسان قد يجد صمتًا بالليل، صمتًا بعد سقوط الأمطار، صمتًا في غرفة النوم، صمتًا وهو يصطاد على شاطئ البحر، لكن هذا الصمت الذي حوله يختلف، أشبه بصمت الرهبان في الأديرة البعيدة. أجل. المكان مظلم كاب والسقف واطئ والناس تتحرك ببطء محنية رؤوسها. هذا مكان منقطع عن العالم. من الصعب جدًّا أن يفكر من يجلس هنا ولو للحظات أن هناك في الخارج دنيا صاخبة يتحرك فيها الناس. الاستراحة بئر عميقة مظلمة. حتى الكوَّة الصغيرة التي تفتح في الحائط بين حين وآخر، ويُسمَع منها صوت نسائي ينادي «زينب، أحمد، سعاد، محمد» لا تقطع الصمت، فالصوت يخرج مثل تنهيدة، والمريض ينهض مثل خيال، ويدخل من باب لا يراه، ولا يعود. إنه معمل الجلسات بالإشعاع، له باب

آخـر يفـضي إلى الخـروج. لا بُـد. والـذي يغـادر مكانـه يحتلـه أحـد الواقفـين في صمـت أيضًـا.

بـدأ يشـعر أنـه يتـلاشى. قالـت لـه وداد هامسـةً «روحـي تنسـلب مـني، يُخيَّـل إليَّ أن أحـدًا سـينادي عـليَّ لأدخـل مـع المـرضى. أريـد أن أغـادر هـذا المـكان، فانتبـه إلى أن ذلـك يحـدث معـه، وسـألها «أيـن أسـعد؟». لقـد أدركا أنـه منـذ اصطحبـه الدكتـور الشـاب لـم يعُـد. كانـت سـاعتان قـد مرتـا كأنهمـا في صحـراء ممتـدة بـلا هبَّـة ريـح.

- نقوم من هنا بسرعة.

قالـت وداد فوقـف راشـد، لكـن الشـخص المجـاور لـه، الصامـت مثـل الليـل أمسـكه مـن يـده..

- انتظر قليلًا.

هكـذا قـال الرجـل الـذي انتبـه راشـد إلى أنـه يجلـس جـواره! إنـه لـم يكـن منتبهًـا أيضًـا إلى أن وداد تجلـس جـواره مـن الناحيـة الأخـرى.

كان في صـوت الرجـل شيء غريـب مـن الجاذبيـة. قـوة خفيـة تحـث راشـد عـلى الإذعـان لمطلبـه. جلـس. تسـاءل الرجـل:

- هل تأتي كثيرًا هنا؟

- لا.

- إذًا أنت سليم؟

- الحمد لله.

- لا بُد أن تأتي كثيرًا.

اندهش وارتبك، فأضاف الرجل:

- أنا آتي يومًا وأترك يومًا.

ابتسم وبدت على وجهه علامات سوء الفهم..

- هنا أحسن مكان يأخذ فيه الإنسان عظة وعبرة. أنا لو لم آت هنا كان زماني قاتل أو عاصي. الإنسان حين يأتي هنا يتعلم أن يحمد الله على نعمة الصحة، ويتعلم التواضع لأن الموت لا يفرِّق بين قوي وضعيف.

وجد حديث الرجل عجيبًا جدًّا.

- أنا رئيس جمعية التربية الجديدة. ينضم إليها كل من يريد أن يأخذ عظة في حياته تنفعه في آخرته. إن لدنيا جدول أعمال مهم جدًّا أساسه زيارة المقابر وزيارة مستشفيات السرطان والفشل الكلوي وعرض أفلام الكوارث الطبيعية والمذابح والمجاعات. معظم أعضاء الجمعية كانوا ناس جبَّارين، الآن يتكلمون بهدوء، ويمشون بهدوء، ولا يثيرون أيَّ زوابع في المجتمع.. تصور أنني أرسلت البرنامج لوزير التعليم لنبدأ مع الناس من سنٍّ مبكرة، دعوته لإلحاق طلبة المدارس الابتدائية بالجمعية فلم يرد عليّ حتى الآن.. هل تعرف طريقة أستطيع بها التأثير على هذا الوزير؟

- اتركه يموت بلا موعظة. سيندم كثيرًا على عدم استماعه إليك..

قال راشد ذلك ووقف بسرعة، فوقفت وداد.. سيبحثان

عـن أسـعد سـعيد.

.....

في الطرقـة القريبـة مـن الاسـتراحة كان هنـاك صخـب شـديد. مطـر مـن الصخـب. كيـف حقًّـا لـم يسـمعا هـذه الأصـوات والطرقـة لا تبتعـد كثيرًا عـن الاسـتراحة! مئـات الأرجـل ومئـات الأيـدي تتدافـع. في ثانيـة انفصـل عـن وداد. وجـد نفسـه وحـده. لا بُـد أنهـا عـادت إلى الاسـتراحة، لـم تتحمَّـل الزحـام، وإذا لـم يكـن ذلـك سـتعود في النهايـة. سـتفكر أنـه هـو بـدوره عـاد للاسـتراحة. سـيتقابلان. لا شـكَّ في ذلـك. أسرع في الطرقـة ذات الاتجاهـين. أخـذ الاتجـاه الأيمـن لأنـه أقـل ازدحامًـا. هـذا مستشـفى ولـه مركـز، هـو حجـرة المديـر. سـيصل إليهـا رغـم أنـه حـين تركهـا لـم يـأت مـن هـذه الناحيـة. لا يعـرف مـن أيِّ اتجـاه جـاء، لكـن لا بـأس..

«الأشـعة المقطعيـة والرنـين» لافتـة عـلى أحـد الأبـواب الموصـدة. فتـح البـاب ليسـأل مـا إذا كان أسـعد سـعيد قـد مـرَّ مـن هنـا. فصرخـت النسـاء العاريـات تحـت الأجهـزة في وجهـه، والتفـت إليـه طبيـب الأشـعة في غيـظ. كيـف حقًّـا لـم يطـرق البـاب، نـسي مـا كان يـود أن يسـأل عنـه، لأنـه فكـر كيـف رأى رجـالًا عـراة أيضًـا ينامـون تحـت أجهـزة أشـعة جـوار النسـاء، وكيـف كان لأحدهمـا أيـر منتعـظ. مـشى في الطرقـة يقابلـه عـدد كبـير مـن الرجـال الصُّلـع في طريقهـم إلى قسـم الكوبالـت، ونسـاء عـلى رؤوسـهن أغطيـة وشـيلان أدركهـن الصلـع أيضًـا. يعـرف أن العـلاج بالكوبالـت يفعـل ذلـك بالجميـع. وبـين الرجال

والنساء كان عدد كبير من الأطفال يجري ورؤوسهم صلعاء تلمع تحت أضواء الطرقة، لكن الطرقة ازدحمت فجأةً من إقبال عدد كبير من المرضى من اتجاهين آخرين، فرأى نفسه وسط رؤوس كثيرة صلعاء، وفكوك معوجة، وأثدية تصل إلى السُّرة، ومحاجر خالية من العيون، وأعناق منفوخة تترهَّل على الأكتاف، وأقفية تتدلى على الظهر، وراكبي العربات بيدٍ واحدة بلا ساقين، مشاهد لم يرها في أفلام الرعب! والجميع يمشون ببطء وينثنون ويتلفَّتون ويستندون على الجدران حتى يلتقطوا أنفاسهم، ثم يعودون يزحفون تنزل دموع بعضهم فيتركها وبعضهم يُخفيها وبعضهم يمسحها، ويتلفتون جميعًا لبعضهم ثم ينظرون إلى السقف الذي بعده السماء. أجل لا بُد. لا أحد يفكر في أن فوقه سقفًا آخر، وربما عدة أسقف، فالمستشفى متعدِّد الطوابق. في النهاية دائمًا هناك السماء التي تتسع لدعوات كل هؤلاء الذاهبين إليها. إنها تفتح الأبواب لهم ولدعواتهم بلا شك. هذا هو الطريق الوحيد الآن.

وظل هو يفتح كل غرفة تقابله في الطرقة دون أن يقرأ اللافتة التي عليها، وفيها كلها كان يرى أجهزة وناس فوق وتحت الأجهزة، ولا أحد يقول له أن شخصًا اسمه أسعد سعيد مرَّ من هنا، ونسي أنه يريد حجرة المدير الذي منه سيعرف أين أسعد بالضبط، ومن كل الحجرات كانت تقابله وجوه برمة من الأطباء والممرضات والمرضى، وانتبه إلى أنه في الطرقة يمشي شخص طويل عريض يمسك بعصا خيزران ينظم بها الناس، يرفع العصا دون أن يضربهم، وقد أطلق

لحيته وزاغت عيناه على بعيد، ويهتف: «مكانك يا محترم. مكانك يا مريض. دورك يا أخ». ثم انتهت الطرقة إلى ردهة واسعة أرضها بلاط بارد، فيها رطوبة محبوسة منذ سنين وأمامها مصاعد ثلاثة.

- إلى أين تذهب هذه المصاعد!

قال لنفسه، فوجد جواره شابًّا لم يكن قد انتبه إلى وجوده.

- إلى أعلى.

- أعرف. أقصد إلى أيِّ قسم؟

- إلى كل الأقسام.

أجاب الشاب مبتسمًا، فقال محاولًا أن يكتم غيظه.

- طيب. طيب. أنا أريد حجرة المدير.

- الأفضل من الناحية الأخرى.. لكن ما دمت جئت إلى هنا فاصعد معي.

وصل المصعد وانفتح أمامهما. دخلا. في المصعد ظل الشاب ينظر إليه ويبتسم. كان الشاب قد ضغط على زرار أدرك راشد أنه يخص الدور الذي يقع فيه مكتب المدير. لما رأى الشاب لا يكف عن الابتسام أشاح بوجهه عنه.

- أنت خائف؟

سأله الشاب الذي كانت عيناه متألقتين جدًّا.

- لا. لماذا أخاف؟

- كنت أظنك خائفًا. لقد ركبنا المصعد الواسع. لا ينزل فيه إلا الموتى. حظك حلو. لا موتى الآن. عادةً يكون الموتى بالليل..

ابتلع ريقه وقرر أن لا يرد عليه، لكنه قال:

- هل تعمل هنا؟

- أنا مريض.

قال الشاب ذلك مبتسمًا، ثم أضاف:

- لكن شفيت والحمد لله.

ارتبك للحظةٍ، ثم قال وصوت صرير العجلات التي يصعد بها المصعد يصل إليه.

- لماذا إذًا تبقى هنا؟

ابتسم الشاب وقال:

- أين أذهب؟ هنا سرطان وبرًا سرطان أكتر..

لم يعرف بماذا يجيبه. قال الشاب:

- أنا صديق المرضى. أؤدي لهم خدمات. تعبان أساعده على دخول الحمام. زعلان أسلّيه. صوتي حلو. أعرف أغني. أغني لك؟

- لا شكرًا.

قال ذلك باسمًا، فاستطرد الشاب:

- حتى عنابر النساء لا تخشاني. يحبون غنائي. وبالليل أنام هنا. ليس لي حجرة للنوم. أنام في البدروم. في المشرحة مع الموتى. تومرجي المشرحة يجدها فرصة وينام ويعتمد عليَّ في حراسة الموتى. أنا لا أخاف أبدًا. تصوَّر أغني أحيانًا في المشرحة. يخيَّل إليَّ أنهم يسمعونني.

توقَّف المصعد وانفتح الباب فخرج بسرعة، وسمع الشاب يقول:

- أمامك قسم الباطنة. بعده المدير.

.....

أبواب قسم الباطنة على الناحيتين في الطرقة الضيقة موصَدة كلها. أبواب وراءها مرضى يسكنون مع الموت الذي يجلس في الأركان مبتسمًا منتظرًا موعده. لم يطرق أيَّ باب. لم يفتحه. آخر باب كان مواربًا. لقد نسي أنه يريد المدير.. لكنه لم ينسَ أنه يبحث عن أسعد سعيد..

دفع الباب الموارَب برفق ليرى خلفه صالة مربعة كبيرة، وكان الذي يقابل الباب مباشرةً أمام الحائط المواجه تومرجية ضخمة تمسك في يدها بأنبوب رفيع ينتهي بكيس بلاستيك منفوخ بالمحلول الذي داخله. قالت:

- عيب يا أستاذ. هنا قسم العلاج الكيميائي الخاص بالنساء. أغلق الباب.

لكنه لم يغلق الباب. تجمَّد وعيناه تدوران في الجالسات في شكل أشبه بالدائرة داخل الصالة. نساء صامتات، على

رؤوسهن جميعًا أغطية، فقراء الملبس، أسلموا أذرعهن إلى أنابيب موصَّلة بمحاليل وأدوية مرفوعة على حوامل معدنية. نساء جلسنَ مع الصمت والشرود، لم ينتبهن إليه ولا إلى حديث التومرجية له. لكن في ركن كان هناك برميلان كبيران مبطنان بكيسين من البلاستيك الأسود الذي يستخدم في صفائح الزبالة. كانت تقف أمام كل برميل امرأة تتقيأ، ثم خرجت ممرضة صغيرة، حسناء إلى درجة مدهشة، من باب صغير أمامه مفتوح على هذه الصالة، صالة انتظار الموت، هكذا فكَّر للحظةٍ، وخلفها سيدة جميلة، طويلة، مُهندَمة، لكنها صلعاء تمامًا، نسيت غطاء رأسها في الداخل. كان على وجه المرأة ألم، وارتباك، والتفتت الممرضة الحسناء جدًّا إليها، وقالت المرأة بأدب وخجل:

- يا مدموازيل، العلاج لازم يكون كامل. هكذا لا يفيد.

نظرت إليها الممرضة الحسناء نظرة غيظ، ارتبكت المرأة جدًّا. وانتبهت التومرجية إلى أنه لم ينصرف، فهتفت:

- أنت الظاهر عليك بتاع نسوان صحيح. قلنا لك امشي عيب.

لكنه كان قد تسمَّر فعلًا في مكانه، يريد أن يمشي لكنه لا يستطيع. لقد جذبه بحق وجه الممرضة الجميل. سمراء لها عينان خضراوان، صغيرة الحجم مثل السيرلانكيات اللاتي رآهن كثيرًا أيام اغترابه في البلدة الصحراوية. كانت الممرضة تنظر إلى المرأة التي حدَّثتها نظرات طويلة، ثم قالت بهدوء:

- حتى لو كان الدواء كاملًا فهو لن يفيد. أنتم ميتون ميتون!

بان الذُّعر الشديد على المرأة الطويلة الصلعاء، لم تنتبه واحدة من المرضى لكلام الممرضة، لم تتوقف اللتان تتقيآن عن التقيؤ لكنهما الآن تتقيَّأن ببطء وإجهاد، وقالت التومرجية السمينة للممرضة:

- حطِّي لها يا سستر بديل دي غلبانة.

ثم نظرت إليه وهتفت.

- يا أستاذ أنت مجنون. إما مجنون أو خول!

هنا أغلق الباب، لكن ضحك الممرضة وصل إليه، وصوت التومرجية لم ينقطع، وصل إليه أيضًا وهي تقول:

- واقف متخشب كأننا فرجة إذًا هو رجل خول.

ابتعد في اندهاش شديد من نفسه كيف لم يرد عليها، لكنه سرعان ما ابتسم وهز كتفيه ومشى لتنتهي به الصالة إلى ردهة كبيرة شديدة النظافة، بها مرضى كثيرون أكثر أناقةً من المرضى الذين رآهم من قبل، رجال ونساء وأطفال لكنهم مثل غيرهم صامتون مثل أحجار مقيدة.. لو سأل أيًّا منهم لن يرد عليه. ومرقت من أمامه عربة عليها مريض يصرخ بزئير، ويدفعها تومرجي نشط اختفى بها بسرعة، فغاب الزئير كأنه سقط في بئر، وانفتح باب غرفة أمامه وخرج طبيب شاب يصرخ طالبًا السكوت من المرضى الذين نظروا إليه في ذهول. هل سمع صمتهم؟

فكَّر للحظةٍ مندهشًا، ثم تقدم إليه ليسأله، لكن باب غرفة أخرى انفتح وخرج منه رجل يكاد يتعثر، واضح أن أحدًا في الداخل دفعه بقوة، وإذا بطبيب شاب آخر يخرج وراء الرجل الذي بدا له مريضًا من شكل صلعته. ثم صرخ الطبيب الشاب في الرجل:

- لو شفت أمك هنا سوف أسلمك للبوليس.

ثم دخل وصفق الباب خلفه، بينما وقف الرجل المدفوع حائرًا في يده بعض أوراق -نظر إليها لحظة- ثم بدا عليه الألم والحزن ومشى منكسرًا في الطرقة الممتدة أمامه.

كان الطبيب الذي شتم المريض قد عاد وفتح الباب ونظر إليه. توجس منه. خاف أن يشتمه، لكن الطبيب ابتسم وسأل:

- حضرتك الأستاذ سالم سليمان؟

- أجل.

قال ذلك وهو يشعر أن طوق نجاة نزل إليه.

- لا تؤاخذنا. العمل صعب جدًّا هنا. تصوَّر! هذا المريض شفي تمامًا لكن لا يزال يحمل أوراقه ويأتي إلينا طالبًا أن يستمر في العلاج، لا يريد أن يقتنع أنه شفي. ليتك تساعدنا يا أستاذ. تكتب شيئًا عن هذا الجحيم الذي نعيش فيه.

- أرجوك أن تساعدني أنت وترشدني إلى مكتب السيد المدير.

قال ذلك دون أن يقصد أن يتجاهل كلام الطبيب. لقد تذكر فجأةً ما يريد. قال الطبيب:

- على يمينك. المكتب المقابل. هل تحب أن أصحبك إليه؟

- شكرًا.

انحرف يمينًا، بينما ظل الطبيب ينظر إليه. كان هو يفكر كيف حقًّا عرفه الطبيب الشاب الذي حين كان سالم هنا كاتبًا معروفًا كان هو بالتأكيد أصغر من ذلك كثيرًا جدًّا، ربما طالبًا في المرحلة الثانوية.. لعله قارئ من سِن مبكرة.. لكن لم يشأ أن يشغل نفسه بالأسئلة القديمة عمَّا إذا كان يحمل وجه سالم سليمان أمام الناس، ثم يعود إليه وجهه حين يكون وحيدًا.. لقد كفَّ عن رؤية وجهه في المرآة منذ أن رأى نفسه امرأة، بل ويحلق ذقنه دون أن ينظر في المرآة، لذلك كثيرًا ما ينسى مناطق صغيرة منها. لقد صار الآن أمام باب غرفة المدير فتنهَّد في ارتباك.. لعله أيضًا يجد وداد في داخلها..

دقَّ على الباب دقتين ضعيفتين ثم دفع الباب برفق. وجد الغرفة التي دخلها أول مرة كما هي لكن بلا مدير. نساء شابات ومتوسطات العمر جالسات في شبه دائرة يعلوهن جميعًا صلع تام، وتحت أرجلهن يجلس أطفال صلعاء أيضًا. لا يمكن أن تكون هذه غرفة المدير. لكن هذا هو مكتبه لا يخطئه واسمه على الهرم الحشبيّ الذي يتصدَّر المكتب، وها هي فناجين القهوة على المنضدة الصغيرة

أمـام المكتـب. وأوشـك أن يسـأل الجالسـات عـن المديـر لكـن يـدًا ثقيلـة صـارت عـلى كتفـه فجـأةً. التفـت ليجـد رجـلًا شـاحبًا جـدًّا وأصلـع أيضًـا.

- اخرج لو سمحت من هنا.

- أريد السيد المدير.

- هذه ليست حجرة المدير.

نظـر إلى الصمـت السـاكن حولـه في وجـوه النسـاء والأطفـال والعيـون الشـاخصة إلى لا شيء.

- لكني دخلتها من قبل!

- لا شك أنك فعلت ذلك. الآن ليست حجرة المدير.

اندهـش جـدًّا. هـل يغـير المديـر مكانـه بهـذه السرعـة! ولمـاذا اليـوم؟ واسـتمر الرجـل:

- هؤلاء جميعًا سيموتون.

-.....

- طبعًا أنت لا تصدقني. هذه حصة عزرائيل اليوم.

كانـت سـاقاه قـد بدأتـا ترتعشـان، لكـن الموقـف في الحقيقـة يدعـو أيضًـا للسـخرية. قـال:

- هل تقصد.....

قاطعه الرجل على الفور:

- بالضبـط. هـذا مـن أصـول العـلاج. البروتوكـول الموقَّـع

بين المعهد وبين شركات الدواء الأجنبية لتجريب العقاقير الجديدة في مجال السرطان ينص على ذلك. عزرائيل وقَّع على البروتوكول كطرف ثالث ضامنًا للتنفيذ.

كاد يضحك، يقول للرجل «إنك تهزل» لكن الرجل استمر:

- أرجوك صدقني. أنا أخشى أن يخطئ عزرائيل فيقبض روحك.

«لا بُد أنني وقعت مع مجنون حقيقي». قال لنفسه وانصرف. لم ينسَ أن ينظر لمجلس الصمت الحزين حوله، وعاد يمشي في الطرقة التي جاء منها، طالت به كثيرًا، إذ كان تقريبًا لا يمشي حتى وصل في نهايتها إلى غرفة الممرضات. هكذا تقول اللافتة. طرق الباب فجاءه صوت أنثوي:

- ادخل.

دفع الباب برفق..

- صباح الخير.

- صباح النور.

كانت ممرضة حسناء مبتهجة. قالت لزميلتها الحسناء أيضًا:

- أول واحد يدخل علينا سليم..

ثم حدَّثتهُ:

- تحت أمرك..

تردَّد، ثم قال:

- أنا.. أنا تائه!

ضحكت الممرضة.

- عايز تروح فين؟

- لا أدري.

نظرت لزميلتها مندهشةً. ضحكت الاثنتان معًا.

- طيب اقعد استريح يمكن تعرف عايز تروح فين.

جلس وفكر أن أحسن طريقة أن يحكي القصة كلها من البداية. وربما منذ جاءته وداد وكيف أمضت الليل معه، ثم اصطحبته من مكتبه إلى البار، حتى ما جرى لصاحب الشيء يقوله. كل ذلك سيكون مفيدًا الآن. فما يحدث هنا ليس أمرًا يخص المستشفى. إنها مؤامرة كونية، لكنه قال:

- لي صديق جاء اليوم للعلاج. قابلنا السيد المدير فأرسل معه طبيبًا شابًّا، وطلب منَّا أن ننتظره في الاستراحة جوار حجرة الكوبالت. انتظرناه أنا وفتاة كانت معي وقتًا طويلًا. لم يأت. قمنا نبحث عنه. تهت عن الفتاة وتاهت عنّي. ذهبت إلى حجرة المدير فلم أجدها..

ضحكت الممرضة.

- بس كده. انت لا تهت ولا حاجة. «وفجأة قالت بصوتٍ عالٍ» عايز إيه يا زفت؟

كان من الواضح أنها تخاطب شخصًا يقف بالباب خلفه.

نظر فوجد تومرجيًّا سمينًا أحمر الوجه يقف في يده جردل صغير قذر وخلفه تومرجي سمين أحمر الوجه ترك لحيته حول وجهه ويحمل مسَّاحة لمسح البلاط. قالت لزميلتها:

- مائة مرة قلنا المسح بعد ما نروَّح. خلاص مع السلامة.

ظل هو ينظر إليهما بدقة، وقال بصوت هادئ لأولهما:

- حضرة الزعيم؟

سمعته الممرضة فقالت للرجل:

- يخرب بيتك. انت اسمك الزعيم؟ عدنان!

ارتبك الرجل واهتزَّ الجردل في يده، وقال:

- كيف حالك يا سالم بك؟

نظرت الممرضتان كلٌّ منهما إلى الأخرى، ثم نظرتا إليهما واحدًا بعد الآخر.. وقال الزعيم:

- شفت يا سالم بك ماذا فعلت حكومتكم بي؟ رفعت عنّي الدعم المادي والمعنوي. عقدت اتفاقًا مع الزعيم الجديد أن تتخلَّى عنّي. قالت لي أن أبحث عن عمل أنا والوزير، ويكفي أنها لن تسلمنا للزعيم الجديد. لقد صادر الزعيم الجديد كل أموالي. هكذا صار حالي أنا والوزير المُخلص..

صرخت الممرضة في الزعيم:

- ماذا تقول؟ أنت تهذي يا روح أمك؟

لكن راشد، الذي لم يصدق ما يراه أو يسمعه لم يجد

شيئًا يقوله له، فقال للمرضة:

- كنت ستقولين لي أين أذهب؟

- إلى قسم تخطيط المخ. في الدور الأول. جوار الكوبالت. صديقك لا بُد انتهى من جميع الفحوص. آخر شيء هو التخطيط، بعدها يبدأ العلاج، غدًا أو بعد غد.

تردد قليلًا، ثم قال:

- لكن لا يعاني من ورم في المخ. أظن أنه الكبد.

- اذهب إلى التخطيط وهم يدلونك.

ثم قالت للزعيم:

- تعال أنت لتحكي لنا الحكاية. زعيم ووزير.. يا سلام، ولا ألف ليلة..

نهض راشد من مكانه ومرق من الباب متجاوزًا الزعيم وأسرع في الخطى.

.....

تعطَّل به المصعد في الدور الثاني. لقد استقلَّ المصعد وحده هذه المرة. رآه أمامه فجأةً في الطرقة مفتوحًا وخاليًا فدخله بسرعةٍ، هو الذي كان قد قرر أن ينزل على السلم حتى لا يقابل في المصعد شخصًا كالذي قابله أول مرة. في الحقيقة هو لا يريد أن يرى أحدًا الآن. يريد الفرار من المكان، لكن هل يترك أسعد سعيد ووداد! وإذا كان أسعد سيموت اليوم فما ذنب وداد؟

تـرك المصعـد ومـشى في الطرقـة الـتي أمامـه. أنـين وبـكاء خافـت لا ينقطـع مـن خلـف الغـرف المغلقـة، ثـم بـدأت الغـرف تظهـر مفتوحـة الأبـواب. كأنمـا الطرقـة منقسـمة إلى قسـمين متسـاويين: الأول موصـدة أبوابـه عـلى أنـين، والثـاني مفتوحـة أبوابـه عـلى جحيـم. وكمـا سـمع فلينظـر. في حجـرة رأى مريضًـا جالسًـا عـلى السريـر تدلـت سـاقاه وإحداهمـا يتـدلى منهـا ورم ضخـم، وتومرجيـان يحـاولان رفـع الـورم وسـاق المريـض معًـا إلى السريـر، في غرفـة ثانيـة رأى مريضًـا في حجـم الفيـل نائـم تتـدلى مـن الناحيتـين عـلى جانـبي السريـر أجـزاء مترهِّلـة مـن جسـده كلـه. كائـن ضخـم جـدًّا لا يتحـرك فيـه غـير عينـين صغيرتـين للغايـة، نقطـتي حـبر أسـود تلمعـان وتتحـركان بدهشـة ورعـب.

يـا إلهـي. مـا الـذي يحـدث بأبنائـك الصغـار! بـدأ يشـعر بعطـف شـديد نحـو المـرضى، وفي الغرفـة التاليـة كان طفـل فـوق السريـر فوقـه كـرة قـدم مُعلَّقـة بخيـط في السـقف، والطفـل نائـم عـلى ظهـره ينظـر إلى الكـرة سـعيدًا.. وجـد نفسـه يدخـل الغرفـة ينظـر إلى الولـد الصغـير الـذي مـا إن رآه حـتى ابتسـم. كانـت عينـاه جميلتـين وكان أشـقر. راح الولـد يـضرب الكـرة بيـده اليُمـنى ويضحـك وهـي تـروح وتجـيء في فضـاء الغرفـة فـوق رأسـه. لكـن ذراعـه اليـسرى كانـت ضخمـة جـدًّا، مرفـق الـذراع في الحقيقـة كان مثـل جـوال صغـير!

- انت اسمك إيه؟

سأله الطفل سعيدًا. أجاب:

- راشد.. راشد سالم.

انتبه إلى أنه مزج الآن بين الاسمين. ثم سأل الطفل:

- وأنت؟

- حسن جميل حسن.

ثم ضحك وقال:

- أبي أسماني حسن حتى إذا ناداني أحد يقول حسن جميل، وقال أن جدي كان اسمه حسن وسماه جميل حتى إذا ناداه أحد يقول جميل حسن. أبي أيضًا أسماني حسن علشان لما ينطق اسمي الثلاثي يصبح حسن جميل مرة وجميل حسن مرة. ويعني حسن جميل مرتين. لعبة حلوة.

في هذه اللحظة طفرت دموعه. وسحب اللوح المعدني المعلَّق على السرير وقرأ اسم الولد كما قاله بالضبط. وقرأ عُمره فوجده عشر سنوات، وأنه تلميذ في مدرسة الراعي الصالح..

- أنت تبكي؟ أنت عيان واللا زعلان علشاني؟ أنا ح أخف.

- إن شاء الله ح تخف يا حسن.

وانحنى يقبِّله، فوجد الطفل يحتضنه بقوة من رقبته بيده اليمنى. لقد سقطت دموعه على عنق الولد حين ارتفع عنه. سأل نفسه لماذا يفعل ذلك حقًّا؟ ما الذي يربطه بهذا الطفل الجميل إلى هذا الحد؟ ثم ما هي حكاية الأسماء هذه! وكان الولد قد بدأ يتأثر ويخاف، فسأله:

- حضرتك دكتور؟

- لا.

- الدكاترة كلهم قالوا إني ح أخف.

- وأنا أيضًا أقول لك ح تخف يا حسن. يا حسن جميل حسن..

وابتسم، وابتسم حسن أيضًا، وراح يضحك، ويجفف هو دموعه، وسمع صوت نهنهة خلفه وبكاءً صامتًا. التفت. كانت امرأة جميلة متوسطة العمر تجلس في الركن تراقب الموقف كله. إنها أم حسن التي وقفت وتقدَّمت نحوه، وقالت:

- هذا الأستاذ سالم سليمان يا حسن الكاتب الكبير. كان بابا يحب يقرأ حكاياته. هو قال لك أن اسمه راشد سالم. لأ. هو يُخفي اسمه. يمزح معك..

وابتسمت، ونظرت إلى راشد، ثم قالت لحسن:

- لا بُد جاء لإجراء تحقيق صحفي عن المستشفى، ولا يريد أن يعرف شخصيته أحد.

ثم خاطبته:

- ليتك يا أستاذ سالم تكتب مقالًا مؤثرًا عن حسن.

اللعنة على سالم سليمان، حتى حزني سرقه منّي، وصار منسوبًا إليه. عواطفي سلبها منّي. آه لو عرف الناس حقيقة سالم هذا!

وسحبت الأم من درج الكومودينو نوتة صغيرة، وقالت:

- هذه نوتة حسن. ليتك تكتب له كلمتين فيها.

أمسك بالنوتة وفتح صفحاتها الأولى فوجدها مكتوبة بكلمات طيبة، وكذلك عدة صفحات أخرى ممهورة كلها بتوقيعات أشخاص هم عائلة حسن، فجوار الأسماء درجة قرابتهم، خالتك التي تحبك وعمتك التي تدعو لك بالشفاء وابن عم بابا، وهكذا.. استقر على صفحة خالية وكتب:

«يا صديقي حسن الجميل حسن، سوف تشفى، لأننا كلنا نحبك وندعو لك، والناس في الوطن كله. وإذا اجتمع كل هؤلاء على حب أحد فالله لا بُد يستجيب لدعائهم. وسأنتظرك لأقيم لك احتفالًا كبيرًا وأهديك بيانو جديدًا ومكتبةً -ونظر إلى الكرة المعلَّقة وكتب- وكرة قدم ومضرب تنس لا مثيل له».

ووقَّع باسمه «سالم سليمان» بعد أن تردد لحظةً، وأعطاه النوتة فقرأها حسن في فرح، واجتهد أن يرتفع ليقبِّله فلم يستطع، فانحنى هو عليه وقبَّله، فاحتضنه حسن مرةً أخرى لحظاتٍ، ثم تركه وقال هاتفًا:

- أنت شفت الغرفة التانية؟

- لا.

- يا ريت تمر عليها. فيها بهاء زميلي في المدرسة. أصل أنا باحبّه قوي..

زاد ارتباكه وتأثره، فخرج من الغرفة مُسرعًا..

لـم ينظـر في الغـرف الباقيـة. هـرول المسـافة الباقيـة مـن الطرقـة كلهـا. وقـف في آخـر الطرقـة يتنفـس. دلـف إلى طرقـة أخـرى عـن يسـاره، ومـشى يترنَّح مستندًا عـلى الجـدران. تكاثرت عليـه الـرؤى. طبيـب يـشرب المـاء في جمجمـة. حجـرة مفتوحـة ملوثـة جدرانهـا بالـدم، وفي وسـطها ممرضـات وتومرجيـة يأكلون في بطـن مريـض. لسـانان يخرجـان مـن أذنـين ويتكلمـان. كلاب تعـوي عـلى أسـطح المنـازل فتتسـاقط النجـوم مـن السـماء. كاد رأسـه ينفجـر، لكنـه لمـح آخـر الطرقـة سـلَّمًا فهـرول إليـه.

مـا إن اقـترب منـه حـتى سـمع صـوت غنـاء أجـش. صوتًـا يـأتي مـن بعيـد. نـزل درجـات السـلم عـلى مهـل والصـوت يـزداد وضوحًـا. «مـا تحبنيـش بالشـكل ده وتغـير كتـير مـن ده وده. الحـب مـش غـيرة وشـجن. الحـب أكـتر مـن كـده».

الصـوت يـزداد وضوحًـا. يـا إلهـي! إنـه صـوت المغـنّي الأعمى. الأغنيـة أيضًـا لفايـزة أحمـد. لقـد غـيَّر أغانيـه هنـا. لكـن أيـن هـو بالضبـط؟ هـل عـاد إلى البـار ولا يـدري. انتهـى مـن الـنزول إلى الـدور الأول، ووجـد أمامـه طرقـة طويلـة، بـاردة، يهـب منهـا هـواء هـو الـذي يحمـل صـوت المغـنّي إليـه. المغـنّي يجلـس في نهايـة الطرقـة عـلى كـرسي ويحتضـن العـود.. مـشى إليـه في ذهـول. لا يمكـن أن يكـون قـد وصـل إلى البـار، ولا يمكـن أن يكـون البـار تغـير وصـار طويـلًا بـاردًا عـلى هـذا النحـو.. «بتغـير وأنـا قـدَّام عينيـك وباخـاف عليـك مـن غـيرتي أنـا».. وظـل يمـشي والمغـنّي يرفـع صوتـه بإخـلاص.

«بتغير وأنا قلبي في إيديك باهدي إليك كل المُنى» لقد صار يمشي بطيئًا الآن، وبدأ ذهوله يتحول إلى دهشة، ثم بدأ يبتسم «يا حبيبي دا احنا لبعضنا وحرام خصامنا وبُعدنا».. ثم قال فجأةً:

- مَن الذي يقترب مني؟ إيه يا بنات أغيّر الأغنية؟

كان قد صار أمامه تمامًا، واستمر المغنّي يتكلم:

- إياكم حد يعمل حاجة وحشة. أنا شايفكم. آه. ما تفكّروش أني أعمى..

- ماذا تفعل هنا؟

- مَن؟ حضرة الناظر؟

- أيّ ناظر؟

- ناظر المدرسة. آه صحيح هي ناظرة وليست ناظر. مَن أنت؟

ازداد ابتسامًا..

- أي مدرسة! هل تعرف أين أنت الآن؟

- في مدرسة التمريض.

ضحك. ضحك من قلبه.

- يا رجل أنت في المستشفى. في مركز السرطان.

- مستشفى نعم. سرطان لا. يا ساتر يا رب. على أيّ حال المهم الغناء يكون عاجب الآنسات ممرضات المستقبل.

ضرب كفًّا بكف، فقال المغنّي.

- مالك يا أستاذ فيه إيه بالضبط؟

- أنت قاعد في طرقة لوحدك وليس فيها أي بني آدم..

- الله الله الله! إذًا من أين هذه الأنفاس التي أسمعها؟

- هذه الصالة بالذات خالية، ليس فيها غرفة ولا عنبر. مَن الذي أتى بك إلى هنا؟

- واحد ابن حرام قال لي تعال غنّي في مدرسة التمريض لأن هناك حفل تخرج. أحضرني هنا وقعدني.-توقف لحظة- ثم من أنت بالضبط؟ لماذا تريد أن تغشني؟ أقول لك أنا سامع الأنفاس حولي.

- يا راجل يا فنان أنا لا أسمع أي نفس.

- يا نهار أسود. تكون أنفاس الميتين؟

ضحك هو ووقف المغنّي مرعوبًا بحق.

- طيب خذ بيدي لحد السلم. الله يخرب بيتك يا من عملت فيَّ هذا الملعوب.

أخذ ذراعه في يده ومشيا. قال المغنّي:

- لكن أنا يا أخي عارف صوتك. أنت لست غريبًا عليَّ..

- أنا سالم سليمان.

- الكاتب زميلنا في البار؟

لم يرد لأن رجلًا تتدلى حنجرته مر أمامهما فجأةً فحمد

سالم الله للمغني لأنه لا يرى ذلك، ثم مرت امرأة تمشي تتخبَّط في الجدران وتصرخ «يا إله الكون» قال المغنّي مرتعشًا..

- بسرعة سلّمني السلم الله يخليك. لكن أنت من أحضرك هنا ؟

- فيما بعد أحكي لك. السلم قدامك. سأنزل معك.

- الله يسترك. هي الدنيا ضلمت واللا إيه؟

كان السلم غير مُضاء لكن كيف عرف المغنّي؟ سمع نهنهةً ونشيجًا في ظلام السلم. قال المغنّي:

- من يبكي؟ هذا صوت امرأة..

- انزل معي من غير كلام. الناس كلها تبكي هنا.

جاءه صوت المرأة مخنوقًا:

- سالم. أخيرًا ظهرت يا حبيبي.

رآها أمامه.. وداد!

- انتي؟ أنا أبحث عنك. لم أعرف كيف أعود إليك.

هتف المغنّي:

- الأخت الفنانة. الله أكبر. هاتها وتعال البار أحسن..

وضحك. كانوا قد وصلوا إلى الدور الأرضي، والإضاءة كانت شديدة لكن لا أحد في أي مكان أمامهم..

- اسمع. أمسك أنت الجدار يوصلك لباب الخروج. نحن

سنبحث عن أسعد.

- أسعد سعيد؟ لا. قدامكم وقت طويل. سلامُه عليكم.

وقف هو ووداد ترتعش. ضمها إلى صدره بهدوء.. قال في حنان:

- ما زلتِ خائفة؟

لم ترد..

وراحت يداه تمشيان على ظهرها بحنان. كانت باردةً وعهده بها ساخنة دائمًا. أتكون ماتت بين يديه؟ لكنه يسمع أنفاسها.. قالت بضعف:

- هيا نخرج من هنا.

- ألن تبحثي عن أسعد سعيد؟

لم ترد.

فجأة ظهرت امرأة تلطم خديها وتصرخ: «بروفين.. بروفين.. بروفين يا عالم. مورفين يا ربي. يا ربي. يا إله الكون اسمعني. يا إله الكون. ارحمني يا إله الكون».

وظهرت ممرضة تجري إليها في يدها سرنجة فسقطت المرأة تتمرغ على الأرض وتصرخ. انحنت عليها الممرضة وجلست على بطنها، وبطريقة مدرَّبة رشقت السرنجة في فخذها الذي كان قد تعرَّى تمامًا مع فخذها الآخر، والمرأة تصرخ بصوت ذبيح: «يا إلــاااااااااااه الكــوووووووون» وتهمد حركتها شيئًا فشيئًا، ووداد انهارت جالسةً على مهل

في غشاوة متدرجة، بينما راشد قد أغمض عينيه. ظهرت تومرجيتان حاولتا حمل المرأة، ثم رفعت إحداهما رأسها ناحية الممرضة وقالت: «شكلها ماتت»!

وقفت الممرضة لحظةً، مصدومةً، ثم انتبهت لراشد والفتاة فصرخت فيهما: «انتوا هنا ليه؟ ما تروّحوا الله يخرب بيوتكم».. وأسرعت، وجرَّتْ التومرجيتان المرأة خلفهما على الأرض.

احتاجت وداد نصف ساعة حتى تُفيق من غشيتها. مشيا. يحيط كتفيها بذراعه وهي تنتحبُ بصوتٍ خفيضٍ. وصلا إلى نهاية الطرقة فوجدا الدنيا ظلامًا في الخارج. لا أحد يقف ولا صوت في المستشفى من أيّ ناحية. للحظة فكَّر أن الباب الخارجيَّ الموصِّل للشارع قد يكون مغلقًا، لكنه كان مفتوحًا، كان حارسه رجل الأمن الذي رآه حين دخل، الصغير الحجم جدًّا ذا الوجه العجوز، يهمُّ بإغلاقه بجنزير سميك وقفل ضخم. رآهما فابتسم ابتسامته الطفولية..

- مع السلامة. لقد انتظرت خروجكما طويلًا!

قال ذلك وهو يرفع يده بالتحية كالأطفال أيضًا.

كان الشارع أمام المستشفى واسعًا جدًّا، مُضاءًا بالنور إلى درجة غير عادية، والبيوت على الجانبين منخفضة موصَدة أبوابها ونوافذها ولا أحد في الطريق. للحظةٍ فكَّر أن يقف ويستقل تاكسيًا، ولعن نفسه إذ كره أن يستقل سيارته، لكنه فكر أن يومًا كهذا لا بُد ينتهي نهاية سيئة حتى ولو في تاكسي!

- الميدان قريب. بعده نذهب إلى البار. لا بُد سنجد أسعد هناك.

قال ذلك، لكنها لم ترد..

كان مطر خفيف قد بدأ يسقط على المدينة، وكانا وهما يمشيان في صمت قد أحاطت ذراعه بكتفيها، وراح يستعيد ما مر به من أحداث وما رآه اليوم غير مصدق، وجعله المطر، رغم قِلته، يُسرع الخُطى، إذ لم تكن هناك شرفات في بيوت هذا الشارع، وبعد مسافة طويلة، وهو يقترب من الميدان، اكتشف أنه يمشي وحده. عقدت الدهشة قدميه لحظات، لكن الميدان الكبير بدا واسعًا للغاية أمامه، وشد انتباهه أنه لم يكن فيه مصباح واحد مضيء في محيطه، لكن في مركزه بالضبط عدة أعمدة مُضاءة يجلس تحتها بعض الرجال والنساء رافعين الشماسي السوداء فوق رؤوسهم. جذبه المنظر فأخذ طريقه إليهم. كانوا عشرة أو عشرين. بدا له أنهم الذين بقوا في المدينة، ولم تكن هناك سيارة واحدة في الشوارع المحيطة بالميدان، ولا في الجراجات الصغيرة على محيطه. مشى ناحية الضوء وميَّز من بعيد المغنّي يجلس أمامهم، وفرح، فرح ولا أحد آخر يقف جواره رافعًا شمسية صغيرة فوقه، في الوقت الذي يسقط عليه هو المطر، والمغنّي الأعمى يعزف ولا موسيقى تخرج من العود، يغني ولا صوت يخرج منه، والجالسون صامتون، يستمعون في خشوع، ومن عجبٍ أن المغنّي لم يسمع أنفاسه وهو يقترب منهم، ولا فرح تعرَّف عليه وهو يراه. وجد مكانًا خاليًا كأنما كان قد تُرِك له بين سيدتين

بدينتين، فجلس بينهما ولا يعرف من أين سقطت الشمسية السوداء الصغيرة على حِجره، فرفعها فوق رأسه وأنصت مع المُنصتين...

انتهت

الإسكندرية - القاهرة

2002 - 2000

رواية

برج العذراء

في عام ٢٠٠٣ صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عن دار الآداب البيروتية. اعتذرت دور النشر المصرية عن نشرها. ومُنعَت من دخول مصر فترة. مُنعَت تقريبًا من دخول كل الدول العربية، لا أعرف لماذا! ثم صارت تُزوّر وتُباع سرًا في مصر. نُعيد نشرها الآن. أتذكر أيام كتبتُها. كان كل شيء مضطربًا حولي في مصر. فكرتُ أن أطلق عليها "رواية سيريالية" لأتخلص من الأسئلة. ثم فكّرت أن هناك من يجد فيها واقعًا حقيقيًا. فكّرت أن أطلق عليها "رواية واقعية"، لكن فيها خيالًا جامحًا. إذًا هي رواية وكفي... "برج العذراء" ليس برجًا فلكيًا لكنه اسم حانة يجتمع فيها رجال ونساء. الجميع تقريبًا يبحث عن البكارة الضائعة من حياتهم. تختفي المدينة من حولهم في النهاية أو يختفون منها... لا فرق.

المؤلف

إبراهيم عبد المجيد

روائي مصري كبير، صدر له خمس عشرة رواية وخمس مجموعات قصصية وكتب متنوعة أخرى. من أهم أعماله "ثلاثية الإسكندرية" و"البلدة الأخرى" و"عتبات البهجة" و"أداجيو" و"هنا القاهرة" وتُرجم كثير من أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليونانية والإيطالية. حاز جوائز مهمة منها جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية ١٩٩٦، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف